

سلام على الإسلام  
وتعصّبُ بِخُصُومِهِ

الدكتور شوقي أبو خليل

سلّم بالإسلام  
وتعصّب بخصومه

منشورات  
كلية الدعوة الإسلامية

الطبعة الثالثة

1428 ميلادية

الناشر

كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العظمى

## مدخل

## حوار مع مستشرقة

في الشهر السادس من سنة 1989 م، اتصل بي زميل لي، يعمل موجهاً أولأً لادة التاريخ، وسألني: أريد أن أخذ من وقتك ساعة أو ساعتين، فمتى تستقبلني؟

قلت لزميلي مجيباً: متى شئت في أمسيّة الغد.

قال: سأحضر مستشرقة فرنسيّة حدثتها اليوم عنك.

قلت: أهلاً وسهلاً بكم، ولكن ما الموضوع الذي سيُطّرح،  
كي أحاط له؟

قال: قرأت هذه المستشرقة كتاباً لفيكتور هوغو، عنوانه:  
«أساطير القرون»، وهو يضم عشرات القصائد، والتي منها  
قصائد تحت عنوان: محمد - صلى الله عليه وسلم - والأرز<sup>(1)</sup>،  
ادعى فيكتور هوغو في القصيدة الأخيرة، أن عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه، والذي لقبه هوغو «شيخ الإسلام»،

(1) - الأرز: شجرة الصنوبر، والجمع أرز، [اللسان: أرز]، وهو شجر معروف في بلاد الشام تشتهر به لبنان خاصةً، حتى جعل شعاراً لها على علمها.

وشبّهه بالقديس بولص<sup>(1)</sup>، هدم أربعة آلاف كنيسة خلال عمليات الفتح في بلاد الشام، وبنى من بقايا أحجارها وحطامها ألفاً وأربع مئة مسجداً.

قلت لزميلي: أهلاً وسهلاً -ثانية- بكم، أنا بانتظاركم.  
انتهت المكالمة الهاتفية، بعد تحديد ساعة اللقاء، فرحت أفكراً مليئاً، وأتساءل : هل يستحق كلام فيكتور هوغو هذا، عناء السفر إلى سورية ؟  
وأيُّ بناء جديد سينشه الاستشراق معتمداً على ادعاءات هوغو ؟

وقلت في نفسي أيضاً : ألمْ نسمع صيحات تقول بنهاية عصر الاستشراق ؟

ألمْ يعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين سنة 1975، أنَّ المؤتمر القادم سيعقد باسم «مؤتمر العلوم الإنسانية»؟  
وقالوا: لقد خُتمت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر سنة 1830/، وَامتدَّت على مدى مئة وخمسين عاماً،

---

(1) - بولص : اسمه الأول شاول، يقال تنصر على طريق دمشق، ويبدأ التبشير في مدن آسية الصغرى، قطع رأسه في روما سنة 67، يلقبونه «رسول الأمم».

وقالت "الليموند" الفرنسية : إنَّ هذا التَّحُول يُعدُّ «موت الاستشراق» وقال جاك بيرك، «انتهى زمن الاستشراق»، في الوقت الذي كرم العدو الصهيوني في الأرض المحتلة المستشرق برنارد لويس، الذي هاجم الأمة العربية ووصفها بالعنصرية !!  
وحيث يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق الصهيوني قوامه رودنسون وبرنارد لويس، يركِّز كلَّ اهتمامه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل والقدس واليهود ... أليس هذا كله يجعلنا في حذر دائم مما يكتبه المستشرقون، وما يكتُبُ عنهم، ونحن إزاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية، نحسُّ بأنَّ الخطر أصبح أشدَّ قوَّةً وعمقاً، وأنَّ الاستشراق يغيِّر جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكثر خطراً <sup>(1)</sup>؟.

سيبقى الإسلام هاجسهم اليوم وغداً، إنَّ العقيدة البديلة للفراغ الروحي الذي يعيشونه، بعد أن نبذت العقول جانبَ الأسرار والخرافات والإله المصلوب، الذي لم يحم نفسه وقتلها صلباً ليقتدي خطايا البشر، وهو الذي يملك العفو - إن كان إلهـاـ دون صلب أو فداء.

---

(1) - «الهلال» : عدد كانون الثاني (يناير)، أي النار 1976، صفحة: 67

التراث الإسلامي والمستشرقون للأستاذ أنور الجندي.

مرت عشرات الأفكار في خاطري، كان آخرها: أما أن لنا -نحن المسلمين- أن نترك موقف الدفاع الذي نفقه لرد شبّهات الاستشراق وافتراطاته، ونقف موقف الطارح في ساحب البحث عيوبهم ومخاكيتهم؟  
جباً للحقيقة من ناحية.

وأشغالاً لهم بترقيع ما عندهم وترميمه من ناحية ثانية.  
وإفهاماً لهم أننا نعلم ما عندهم من عقائد وأفكار بالية من ناحية ثالثة، عقائد لن تتلاءم مع حقائق العلم الحديث، مهما حرصوا على المواربة في تفسيرها، وهذه هي أوربة تخلّى عن دينها إلى العلمانية، والكنائس تباع في المزادات، ومع ذلك التبشير قائم خارجها على قدم وساق، في إفريقيا، وجنوب شرقي آسيا !؟

\* \* \*

وفي الموعد المحدد، زارني الزميل ومعه المستشرقة الفرنسية، وبعد كلمات مقتضبة جداً في المjalمة والترحيب، دخلنا صلب الموضوع، وراحـت المستشرقة بـعـربـيـة فصـحة تـقرـرـ: إن عمر بن الخطاب «شيخ الإسلام»، و«بولص المسلمين» أمر -أثناء فترة خلافته- بهدم أربعة آلاف كنيسة، وبنـى ألفاً وأربع مئـة مـسـجـدـ، فـأـينـ تـسامـحـ الإـسـلـامـ ؟

قلت على التوّ مجيباً: وما مصدر هذه المعلومات التاريخية، التي لم أقرأ عنها من قبل؟ وأنا - كما هو معروف معلوم- مختص في تاريخ صدر الإسلام، وأحاضر به في جامعة دمشق؟

قالت: مصدرها كتاب «أساطير القرون» لفيكتور هوغو في قصيدة الأرز.

قلت: فيكتور هوغو، شاعر وكاتب فرنسي، ولد سنة 1802، وتوفي سنة 1885م، امتازت مؤلفاته بقوة المخيّلة، وتنوع الألفاظ، وغنى الوصف، ولكنه ليس باحثاً موثقاً، ولا مؤرخاً معاصرأً لعهد الفتوحات العربية الإسلامية، التي تمت في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

قالت: طبعاً، هذا صحيح.

قلت: شاعر امتاز «بقوة المخيّلة، وتنوع الألفاظ، وغنى الوصف»، وليس باحثاً مدققاً، أو مؤرخاً موثقاً ... كيف تعتمدين أقواله وطروحاته؟ فساد صمت، مع نظرات استغراب، فخرقت جدار الصمت بكلمات متقطعة، قائلة:

إنها موضوع رسالي ... أطروحتي ... لنيل درجة الدكتوراه .

قلت: إِنَّكِ تجيدين العربيةُ نطقاً، ولعلها كتابة وقراءة أيضاً  
قالت: بالطبع، أنا أقرأ العربية وأكتبها بشكل ممتاز.

قلت: فلم لم تعودي إلى المصادر العربية، لدراسة هذه  
الفترة التي عاشها عمر بن الخطاب، ولتنهلي من معينها، بدل  
العودة إلى فيكتور هوغو الذي عاش بعد عمر بأكثر من اثنى  
عشر قرناً؟

قالت: ولكنه فيكتور هوغو؟!!

قلت: نعم، إنه هوغو الشاعر الفرنسي الكبير، والكاتب  
القصصي العظيم فقط ليس إلا، أما هوغو المؤرخ، وهوغو  
الباحث فلا .

ودار حديث على مدى ساعتين وأكثر، تكلمت خلالهما  
وهي تسمع وتكتب، وتناول كتاباً من يدي، وتدع آخر، لتكتب  
عنوانه، واسم مؤلفه، وطبعته وسنتها ... ومما قلته لها:

أسمعت بما يعرف في علم النفس «بالإسقاط»، الذي هو  
بمعناه الأصلي يعني ميل الفرد إلى أن ينسب عيوبه وأخطاءه  
ورغباته المستكرهة المكتوبة إلى غيره من الناس والأشياء ؟  
فالبخيل لايفطن إلى أنه بخيل وينسب البخل إلى غيره .

وكذلك الأناني والكذاب والمغرور والكسول ....

قالت: وما علاقـة «الإسقاط» مع ما قاله فيكتور هوغو ؟  
قلـت: هناك مثل عـربـي عـظـيم يـقول: «رمـتـني بـدـائـها  
وـانـسـلـتـ»، اـسـمـعـي:  
**أولاً:**

منذ الفـترة المـكـية - قبل الهـجـرة النـبـوـية الشـرـيفـة - كان  
شـعـورـ المـسـلـمـ مع أـخـيهـ المـسـيـحـيـ، لأنـهـ منـ أـهـلـ الـكـاتـبـ، وـسـجـلـ  
ذـلـكـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ:

﴿غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ  
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ  
بَعْدٍ وَيَوْمَئذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ  
وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(النـمـ 5-2/30)

انتـصـرـ الفـرسـ عـلـىـ الرـومـ، فـفـرـحـ مـشـرـكـوـ مـكـةـ بـذـلـكـ،  
وـأـذـلـهـواـ شـمـاتـهـمـ بـالـمـسـلـمـينـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـقـولـونـ بـوـحـدةـ الـمـنـبـعـ  
وـالـجـوـهـرـ، الـتـيـ تـجـمـعـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ الـكـاتـبـيـنـ الـذـيـنـ مـنـهـمـ الرـومـ  
الـنـصـارـىـ، وـإـنـ هـذـاـ المـوقـفـ شـقـ علىـ الـمـسـلـمـينـ وـأـحـزـنـهـمـ،  
فـبـشـرـهـمـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ بـهـذـهـ الـآـيـاتـ وـطـمـانـهـمـ.

حتى إن هناك روايات عديدة، في صيغ مختلفة عن تشارُبٍ بين المسلمين والكُفَّار، ومراهنة بينهم على صدق ما بشرَت الآيات من غلبة الرُّوم بعد انتلابهم، منها ما كان بين أبي بكر الصدِّيق، وأمِيَّة بن خلف<sup>(1)</sup>.

### ثانياً:

معاهدات النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفترة المدنية، سأذكر مقتطفات منها، لتلمسي تسامح الإسلام مع أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية:

ففي المدينة المنورة وادع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عربها الذين تَهَوَّدوا وعاهدُهم<sup>(2)</sup>، وكفل لهم التَّمَتع بما للMuslimين من حقوق ما وفُوا، وبَعُدو عن خبث الطَّوْيَة، والغدر والخيانة.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محقاً كل الحق في إجلاء اليهود من بني قينقاع بعد غزوة بدر الكبرى لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم، فمن أقوالهم: «يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة»، يقول ابن الأثير: فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه<sup>(3)</sup>.

---

(1) - التفسير الحديث، محمد عزَّة دروزة: 6 / 284.

(2) - ابن هشام: 2 / 106 و 107 و 108.

(3) - الكامل في التاريخ: 2 / 96، عين الآخر: 1 / 295.

والنبي صلى الله عليه وسلم محقق كل الحق في إجلاء  
يهود بنبي النصیر بعد غزوة أحد<sup>(1)</sup>، لأنهم تآمروا مع قريش ضد  
المسلمين .

والنبيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَقِّكٌ كُلَّ الْحَقَّ فِي حُكْمِهِ  
عَلَى بَنِي قَرِيظَةَ بَعْدَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ «الْخَنْدَقِ»<sup>(2)</sup> لِنَكْثِمُ عَهُودَهُم  
مَعَهُ، وَهُوَ فِي أَشَدِّ سَاعَاتِ الْحَرَجِ، بَعْدَ أَنْ سَاعَدُوا قَرِيظَا  
وَحَرَضُوهَا ضِدِّ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومع ذلك كان الرسول الكريم يرافق باليهود إذا نقضوا عهده، أو حاربهم فانتصر عليهم، فكان لا يعاقبهم إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه، وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم<sup>(3)</sup>.

وفي غزوة خيبر<sup>(4)</sup>، وجد المسلمون صحائف متعددة من التوراة، فجاء اليهود يطلبونها، فأمر صلى الله عليه وسلم بدفعها إليهم، وهذا التسامح سبقه تسامح آخر عندما ترك صحائف اليهود، ولم يتعرض لها بسوء، مع شدة عداوة اليهود للمسلمين،

(1) - كانون الثاني (يناير)، أى "النار 625م

(2) - شباط (فبراير)، النوار 627م

<sup>(3)</sup> - تاريخ الإسلام: 1 / 132.

(4) - اپ (اگسٹس)، مانیپال 628م.

فقد سمح لبني النَّضير بعد غزوة أُحُد، بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنورة، مما جعل «لفنسون» يقول:

«لم يتعرض - النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون إزاء ذلك مافعله الرومان حيث تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة 70م، إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصّبون من النصارى في حروب اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هذا هو البُون الشَّاسع بين الفاتحين ممَّن ذكرناهم، وبين رسول الإسلام<sup>(1)</sup>».

والتاريخ خير شاهد لوفاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعهوده، حتَّى دفع ديات من قُتلُ منهم خطأ، وعفوه عن كلَّ معتدٍ مسيءٍ منهم جاءه تائباً، وأنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُشَيَّعُ جنائزهم، ويحضر ولائمهم، ويعود مرضاهم، ويقترض منهم حتَّى توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند بعض اليهود في المدينة، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك إرشاداً وتعليمياً لل المسلمين، مع أنَّه كان في الصَّحابة من يقرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل ويؤثره على نفسه.

---

(1) - تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص: 170.

### ثالثاً:

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وقف يوصي جيش  
أسامة بن زيد قائلاً:

«يا أيها الناس، قفووا أوصيكم بعشرين، فاحفظوها عنّي:

1 - لا تخونوا ولا تغلوا<sup>(1)</sup>.

2 - ولا تغدروا ولا تمثلوا.

3 - ولا تقتلوا طفلاً صغيراً.

4 - ولا لاشيخاً كبيراً ولا امرأة.

5 - ولا تعقرعوا نخلاً<sup>(2)</sup> ولا تحرقوه.

6 - ولا تقطعوا شجرةً مثمرة.

7 - ولا تذبحوا شاةً ولا بعيراً إلا لملائكة<sup>(3)</sup>.

---

(1) - الفيل: الغش أو الفيفن والجيفد، والإغلال: الخيانة والسرقة الخفية، [اللسان: غلل].

(2) - عقر النخلة: قطع رأسها، [اللسان: عقر].

(3) - مما سبق يتوضّح أنَّ الإسلام يحرّم استخدام أسلحة الدمار كالقنابل المحرقة التي تقذف على الأمنيين دون تمييز بين محاربين ومستضعفين مدنيين، وفي القرن العشرين، كيف تنتشر المبادئ؟ بالإقناع والحجّة، أم بالقنابل والمدافع؟

8 - وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهם وما فرغوا أنفسهم له.

9 - وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها.

10 - وتلقون أقواماً قد فحصوا أو ساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله<sup>(1)</sup>.

#### رابعاً :

أما عمر بن الخطاب، الذي يتهمه فيكتور هوغو بأنه هدم أربعة آلاف كنيسة، فوصاياه لجنه مشهورة، منها:

كتب رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص<sup>(2)</sup>: «ونح منازلهم وجنودك عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثق بيديه، ولا يرزا<sup>(3)</sup> أحداً من أهلها شيئاً،

(1) - الكامل في التاريخ : 2 / 227، والطبرى : 3 / 226.

(2) - سعد بن أبي وقاص، صحابي أمير، فاتح العراق ومدائن كسرى، [الأعلام 3 / 87].

(3) - رزاء ماله وبناته يبنّته فيها رزماً : أصاب من ماله شيئاً، [اللسان: رذا]

فَإِنَّ لَهُمْ حِرْمَةً وَذَمَّةً، ابْتَكَيْتُمْ بِالْوَفَاءِ بِهَا - - - ابْتَلُوا بِالصَّابَرِ  
عَلَيْهَا، فَمَا صَبَرُوا لَكُمْ وَفَوْا لَهُمْ<sup>(1)</sup>».

وَمِنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَرْضِ الشَّامِ بِقَوْمٍ مُجْنَوْمِينَ<sup>(2)</sup> مِنَ النَّصَارَى، فَأَمَرَ أَنْ يُعْطُوا مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُجْرِي  
عَلَيْهِمُ الْقُوَّتُ بِاِنْتِظَامٍ<sup>(3)</sup>.

وَلَا طُعْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ماتَ وَهُوَ يُوصَى بِأَهْلِ الذَّمَّةِ  
«فَإِنَّهُمْ ذَمَّةٌ نَبِيُّكُمْ»، وَهَذِهِ لَيْسَتْ وَصِيَّةً لِلْمُعَامَلَةِ بِالْحُسْنَى، بَلْ  
الرُّفْقَ، لَكَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَعْرِفْ فِي حَيَاتِهِ شَعَارًا: «وَيْلٌ لِلْمُغْلُوبِ مِنَ  
الْفَالِبِ».

أَمَّا «الْعِهْدَةُ الْعُمَرِيَّةُ» فَتَكْفِيهِ وَحْدَهَا لِرَدِّ افْتِرَاءِ هُوَغُورِي،  
عِلْمًا أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، لَمْ يَقْبِلْ أَنْ يَصْلِي  
دَاخِلَ الْكَنِيْسَةِ، حَفَاظًا عَلَيْهَا، وَضِمَانًا لِبَقَائِهَا، وَلَكِي لَا يُقَالُ: هُنَّا  
صَلَى عَمْرٍ، وَسَنَجْعَلُ مَكَانَ صَلَاتِهِ مَسْجِدًا، فَخَرَجَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ، لِيَصْلِي بِجَوارِهَا، حِيثُ بَنَى مَسْجِدَ عَمْرٍ، الَّذِي تَعَالَتْ  
مَئَذِنُتِهِ وَسَمِقَتْ عَالِيَّةً، بِجَوارِ بَرْجِ الْكَنِيْسَةِ.

---

(1) - نَهَايَةُ الْأَرْبَ : 6 / 169.

(2) - جَذْمٌ : قَطْعٌ، وَالْجَذْمُ مِنَ الدَّاءِ، مَعْرُوفٌ لِتَجْذُمِ الْأَصَابِعِ وَتِقْطُعُهَا  
[اللُّسَانُ : جَذْمٌ].

(3) - الْبَلَانْدِيُّ «فَتوْحُ الْبَلَادَنَ»، صٌ : 135.

وَإِلَيْكِ نَصُّ الْعِهْدَةِ الْعُمَرِيَّةِ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللَّهِ عَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ إِيلِيَّاءِ<sup>(1)</sup> مِنْ  
الْأَمَانِ :

أَعْطَاهُمْ أَمَانًا لِأَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلِكُنَائِسِهِمْ وَصَلَبَانِهِمْ،  
وَسَقِيمَهَا وَبَرِيئَتَهَا وَسَائِرَ مُلْتَهَا، أَنَّهُ لَا تُسْكُنُ كُنَائِسَهُمْ وَلَا تُهَدَّمُ،  
وَلَا يَنْتَقِصُ مِنْهَا وَلَا مِنْ حَيْزِهَا، وَلَا مِنْ صَلَبِهِمْ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ  
مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُكَرِّهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يُضَارَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ ...  
وَعَلَى مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ عَهْدُ اللَّهِ وَذَمَّةُ رَسُولِهِ، وَذَمَّةُ  
الخُلُفَاءِ، وَذَمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ.

شَهَدَ عَلَى ذَلِكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ، وَعَبْدُ  
الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَمَعاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفِيَّانَ، وَكَتَبَ وَحَضَرَ سَنَة  
خَمْسَ عَشَرَةً<sup>(2)</sup> .

فَأَخْذَتِ الْمُسْتَشْرِقَةُ مِنْ يَدِي الْجَزْءِ التَّالِثِ مِنْ تَارِيخِ  
الْطَّبَرِيِّ «تَارِيخُ الرُّسُلِ وَالْمُلُوكِ»، وَعَلَامَاتُ الدَّهْشَةِ مَرْسُومَةٌ عَلَى

(1) - إِيلِيَّاءُ : اسْمُ مَدِينَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمَعْنَاهُ: بَيْتُ اللَّهِ، [مَعْجَمُ الْبَلَادِ] . [293/1]

(2) - الطَّبَرِيُّ 3 / 609، وَالْيَعْقُوبِيُّ 2 / 167.

محياها، وراحت تنقل «العهدة العمرية» بصمت رهيب، ولما فرغت قالت: هذا النص يكفيني.

فقلت: «أقلح الأعرابي إن صدق». فابتسمت، وهزت رأسها، وكأنها تقول: صادقة، صادقة، ثم قالت: أتريد أن تضيف شيئاً آخر للاستزاده والتوثيق؟

قلت لها ليرسو في قلبها اليقين: وعلى منوال «العهدة العمرية» وقع أبو عبيدة بن الجراح<sup>(1)</sup> معاهدـة مع أهل دمشق، ووقع عمرو بن العاص معاـهدـة مع أهل مصر.

والـيـكِ أولاً معاـهدـة دمشق لأبي عبيدة:

لقد صالح أبو عبيدة أهل الشـام، واشترط عليهم حين دخلـها :

«على أن تـركـ كـنـائـسـهـمـ وـيـبـعـهـمـ<sup>(2)</sup>».

---

(1) - أبو عبيدة عامر بن الجراح : أمير قائد، فاتح الـبـارـ الشـامـيةـ، أحد العـشرـةـ المـبـشـرـينـ بـالـجـنـةـ، كانـ لـقـبـهـ «أـمـيـنـ الـأـمـمـ»ـ، تـوـفـيـ بطـاعـونـ عـمـواـسـ وـيـفـنـ فيـ غـورـيـسـانـ، [الأـعـلامـ 3 / 252].

(2) - كتاب الخراج لأبي يوسف القاضي، ص: 80.

والتيكِ ثانياً معااهدة عمرو مع أهل مصر:

هذا ما أعطى عمرو بن العاص<sup>(1)</sup> أهل مصر من الأمان،  
على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبّهم ويرّهم ويحرّم ...<sup>(2)</sup>.

قالت: ولكن أخذ المسلمون جزية من غير المسلمين؟

قلت: صحيح، ولكنها ليست لوناً من ألوان العِقاب، وإنما هي مقابل الحماية التي كفلها لهم المسلمون، لأنَّ قبول الجزية تثبت معه عصمة الأنفس والأموال<sup>(3)</sup>، وقال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما، وبكل صراحة ووضوح: «إذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم، ولا سبيل<sup>(4)</sup>».

### الحقوق العامة لأهل الذمة:

- 1- حفظ النفس: فدم الذمي كدم المسلم.
- 2- والقانون الجنائي سواء لل المسلم والذمي، فالذي يعاقب به المسلم على ما يأتي من الجرائم يعاقب به الذمي أيضاً<sup>(5)</sup>.

---

(1) - عمرو بن العاص: فاتح مصر، وأحد دهاء العرب وأولي الرأي والحزن والمكيدة فيهم، توفي سنة 664 م.

(2) - الطبرى: 4 / 109، وصيغ الأعشى للقلقشندى.

(3) - بدائع الصنائع · 7 / 111.

(4) - كتاب الخراج، ص: 83.

(5) - إلأ الخمر «ولا شك فإنَّ أهل الذمة قد استثنوا من حدُّها في الإسلام»، [كتاب الخراج، ص: 208 - 209].

3 - وفي القانون المدني: المسلم والديسي سواء، وللذميين أن يربوا الخنازير ويأكلوها ويباعوها، ولهم أن يصنعوا الخمر ويشربوا ويباعوها، وإن أتلف مسلم خمر الذمي أو خنزيره، كان عليه غرمه.

وجاء في الدر المختار 3 / 273 : «ويضمن المسلم قيمة خمره - خمر الذمي - وخنزيره إذا أتلفه».

4 - حفظ الأعراض: لايجوز إيذاء الذمي لا باليد، ولا باللسان، ولا شتمه، ولا ضربه، ولا غيبته، «ويجب كف الأذى عنه، وتحريم غيبته كالمسلم<sup>(1)</sup>».

5 - ثبوت الذمة: إن عقد الذمة يلزم المسلمين لزوماً أبدياً، أي أنه ليس للMuslimين أن ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذمة لهم الخيار أن يتزموه ما شاؤوا، وينقضوه متى شاؤوا.

والذمي مهما ارتكب من كبيرة لا ينقض بذلك عقده، حتى لا ينقض عقده كسائر الأفعال كالامتناع عن الجزية وقتل مسلم.. كل هذه الأفعال يعاقب عليها الذمي في القانون كأحد من الجنابة، ولا يُعد ذلك خروجاً على الدولة، ولا يخرج من عقد الذمة.

---

(1) - الدر المختار : 3 / 273 - 274 .

على أن هناك أمرين يُخرجان ولا شك من هذا العقد، أولهما أن يغادر الذمئي دار الإسلام إلى دار الحرب، والآخر أن يخرج على الدولة الإسلامية علينا، ويبعث الفتنة في البلاد<sup>(1)</sup>.

#### 6 - الأمور الشخصية: يقضي بها الذمئون بحسب قانونهم الشخصي.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإمام الحسن البصري<sup>(2)</sup> مستفتياً: ما بال الخلفاء الرأسدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم، واقتتاء الخمور والخنازير؟ فأجاب الحسن البصري: إنما يذلوا الجزية ليتركوا وما يعتقدون، وإنما أنت مُتبع لا مبتدع، والسلام<sup>(3)</sup>.

أما إذا طلب الفريقان بأنفسهما أن تقضي المحكمة بينهما بشرعية الإسلام فتفعل المحكمة وتنفذ عليها حكم الشرع، وأما إن كان أحد الفريقين في قضية تتعلق بقانون الأحوال الشخصية مُسلماً، قضي بينهما بالشرع الإسلامي.

---

(1) - البدائع : 7 / 113، وفتح القدير : 4 / 381 - 382.

(2) - الحسن البصري : تابعي من مشاهير الثقة، ولد بالمدينة وأقام في البصرة، وفيها توفي سنة 728 م.

(3) - حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، أبو الأعلى الموبدي، ص 18.

7 - الشعائر الدينية: ولأهل الذمة حرية في إظهار شعائرهم داخل معابدهم، فلا جناح عليهم، وليس للدولة الإسلامية أن تتدخل بذلك، ولهم أن يرمموا هذه المعابد في مواضعها.

8 - التسامح فيأخذ الجزية والخرج: لقد ورد النهي عن التشديد على أهل الذمة في الجريمة والخارج<sup>(1)</sup>، والبحث على الرفق واللطف معهم في كل حال، ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من أهل الذمة فلا يغنى من الجزية فحسب، بل يجري له عطاء من بيت المال، وإن مات أحد الذميين وعليه شيء من الجزية، فلا يؤخذ من تركته، ولا يكلف ورثته بأدائها، يقول أبو يوسف القاضي :

«إن وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه، أو أخذ بعضها ويقي البعض، لم يؤخذ بذلك ورثته، ولم تؤخذ من تركته<sup>(2)</sup>.».

---

(1) - الخارج : ضريبة تفرض على الأرض التي مسحوا عليها عند الفتح ويقيت في أيدي أصحابها، تدفع كل عام مرة واحدة، قبل الارتفاع بشق الطريق وأقنية الماء .. [الأحكام السلطانية : 171].

(2) - كتاب الخارج، ص : 70.

تكلمت المستشرقة الإيطالية «لورا فيشيا فاغليري<sup>(1)</sup>» عن المعاهدات التي وقّعها المسلمون مع الـ«ذميين»، فقالت:

«منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة، وتقاليدها القديمة، شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام ديناً، ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية، لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك، منح أولئك الرعايا «المعروفون باهل الذمة» حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمنت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرسول والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانوناً يتبعه المسلمون، فليس من الغلو أن تصر على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءاً من شريعته الدينية<sup>(2)</sup>».

وقالت «لورا فيشيا فاغليري» أيضاً:

«ادفعوا جزية يسيرة تُسبّغ عليكم حماية كاملة، أو اخذوا الإسلام ديناً، وادخلوا في ملتنا فتنتمّعوا بالحقوق نفسها التي ننتمّع بها نحن<sup>(3)</sup>».

(1) - أستاذة اللغة العربية في جامعة نابولي، لها كتاب مترجم إلى العربية، عنوانه: «دفاع عن الإسلام».

(2) - دفاع عن الإسلام، ص: 34-35.

(3) - دفاع عن الإسلام، ص: 32.

ويقول {غاستاف لوبيون<sup>(1)</sup>}:

«جزية زهيدة تقل عماً كانت تدفعه إلى سادتها السَّابقين  
من الضَّرائب<sup>(2)</sup>».

## خامساً :

الكنيسة القبطية في مصر، كم عمرها؟

كنائس في كلّ المدن حتّى يومنا هذا، تعود إلى ما قبل  
الفتح العربي الإسلامي، مع أنَّ مصر فتحت أيام عمر بن  
الخطَّاب، فلماذا هُدمت الكنائس - كما يدعى فيكتور هوغو -  
في بلاد الشَّام، وتُركت هنا في مصر، مع أنَّ العقيدة واحدة  
وال الخليفة واحد، والعصر واحد، حتّى أنَّ معظم الجنود الفاتحين  
في مصر، كانوا من جندي الفتح في بلاد الشَّام؟

لقد ذُكرت الكنائسُ ودور العبادة في القرآن الكريم بكلِّ  
خيرٍ، فكيف يهدّمها عمر؟

---

(1) - غاستاف لوبيون [1841 - 1931] من فلاسفة علم الاجتماع  
الفرنسيين، من كتبه الهامة : «حضارة العرب».

(2) - حضارة العرب، ص: 134.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا  
رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ  
صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ  
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ﴾.

(الحج : 40 / 22)

### سادساً :

ياأختي، عصر فيكتور هوغو عصر استعمار فرنسة للجزائر المسلمة، ودافع «كليرمون دي تونير» وزير الحرب الفرنسي عن وجهة نظره المتعصبة - والصلبيّة - في الاحتلال، في تقرير وجهه إلى الملك شارل العاشر، مما جاء فيه: «لقد أرادت العناية الإلهية أن تثار حمية جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم على يد ألد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعى ابن لويس التقي<sup>(1)</sup> لكي ينتقم للدين والإنسانية، وإلهانته الشخصية في الوقت نفسه، وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لتنشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم في النصرانية».

---

(1) - لويس Louis التاسع: [1214 - 1270] قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة.

ولما تم احتلال الجزائر، أقام «بورمون» قائد الحملة الفرنسية صلاة الشكر في فناء القصبة بمناسبة الانتصار، وبعث بوصف لهذا الاحتفال، قال في نهايته: «مولاي، لقد فتحت بهذا العمل باباً لل المسيحية على شاطئ إفريقيا، ورجأنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار الحضارة التي اندثرت في تلك البلاد»، ولم يخف المؤرخون المعاصرون هذه الحقيقة، فوصف «إدوار دريو» المؤرخ الفرنسي المعروف بدراساته عن الشرق حادث الاستيلاء على الجزائر: «بأنه كان أول إسفين دُقَ في ظهر الإسلام<sup>(1)</sup>».

يا أخت، سقطت حصن المدينة - مدينة الجزائر - وأملئت على الدأي شروط التسلیم، وفي صباح 5 تموز (يوليو)، ناصر 1830م، دخلت القوات الفرنسية المدينة العتيقة، ولم يراع البند الخاص باحترام الشعائر الدينية كما نصت المعاهدة، بينما حول الفرنسيون المسجد الكبير إلى كتدرائية.

لقد كان الإسلام هدفاً كبيراً أمام الفرنسيين: «إذ كان الاستعمار الفرنسي استعماراً صليبياً، كما أعلنا، ومن ثمة

---

(1) - المغرب العربي، ص : 86، والجزائر أرض المعارك، ص : 54 / 55.

كانت أولى أعمالهم هدم المساجد الأثرية الرائعة وتحويلها إلى كنائس ... وقف الجنرال رو فيجو يشير إلى الفرنسيين باختيار مسجد من مساجد الجزائر ليصير كنيسة، فأشاروا عليه بجامع «القشاوة»، وهو من أجمل مساجد البلاد وأروعها، وكان في المسجد أربعة آلاف مسلم، انقض عليهم الفرنسيون وذبحوهم عن آخرهم، وهم يعتصمون ببيت من بيت الله، وفي 18 كانون الأول (ديسمبر)، الكانون من عام 1832، كان المسجد كتدريئة الجزائر، ولقد حولوا غير هذا المسجد مساجد أخرى كنائس، مثل مسجد «القصبة»، وهو من المساجد التي ترتبط بها ذكريات إسلامية مجيدة ...

وخلال هذه الحملة الصليبية على أماكن العبادة الإسلامية، قام أحد القسّيس المُسيحيين، وهو القس «شوسبيه» يترأس هذه الحملة الباغية، ويصرف على نفسه وعلى المسيحية، فيكتب إلى ملك فرنسة سنة 1839 منوهاً بأعمال الحاكم الفرنسي الصليبي، إنه يريد أن يضاعف عدد الصليبان والكنائس بالجزائر، إن مولاي لا يستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل المسيو ثاليه، الذي اختار أجمل مسجد في قسنطينة، ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة، وكانت مكافأة هذا القس الصليبي أن يصير أول راع لهذه الكنيسة التي قامت على أنقاض مسجد من مساجد المسلمين !.

ويبلغ الحمق والحدّ حداً كبيراً بأحد الفرنسيين، وهو سكرتير الحكم «بوجو»، فيقول في الكنيسة التي قامت وسط دماء أربعة آلاف شهيد مسلم:

إنَّ آخرَ أيامِ الإِسْلَام قد دَنَّتْ، وفي خَلَالِ عَشْرِينِ عَاماً لَنْ يَكُونَ لِلْجَزَائِرِ إِلَّهٌ غَيْرُ الْمَسِيحِ، وَنَحْنُ إِذَا أَمْكَنْنَا أَنْ نُشَكَ فِي أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ تَمْلِكُهَا فَرْنَسَةُ، فَلَا يَمْكَنْنَا أَنْ نُشَكَ فِي أَنَّهَا قَدْ ضَاعَتْ مِنَ الإِسْلَامِ إِلَى الأَبَدِ، أَمَّا الْعَرَبُ فَلَنْ يَكُونُوا مُلْكًا فَرْنَسَةً إِلَّا إِذَا أَصْبَحُوا مُسِيَّحِيِّنَ جَمِيعًا.

ومن أجل هذه الصليبية في بلد إسلامي، بذل المبشرون جهوداً كبيرة، وشجّعت الإدارة الفرنسية بناء المعابد اليهودية، الكنائس المسيحية حتى صار في الجزائر 327 كنيسة لمسحيين، و45 معبداً لليهود، إلى جانب 166 مسجداً فقط لل المسلمين<sup>(1)</sup>، مع أنهم أهل البلاد، والأغلبية الساحقة من حيث العدد !!

إنَّ عَصْرَ هُوغُو عَصْرُ اسْتِعْمَارِ الجَزَائِرِ، وَهَدْمِ سَاجِدَهَا، وَتَحْوِيلِهَا إِلَى كَنَائِسَ، فَكَانَ «الاسْقَاطُ» لَقَدْ وُصِّمَ

---

<sup>(1)</sup> - الجزائر أرض المعارك، ص : 74.

الفرنسيون بسوء عملهم وتعصّبهم أمام الرأي العام العالمي كله، فادعى هوغو زوراً وبهتاناً و«إسقاطاً» : ياقوم، لاعجب مما يجري على أرض الجزائر بعد استعمارها، لقد سبقنا المسلمين أيام عمر بن الخطاب إلى مثل هذا العمل، ليخفّف من اشمئزاز العالم نحو قومه المستعمررين.

### سابعاً :

لقد كانت بلاد الشّام ميدان القتال الرئيس في مطلع القرن السابع الميلادي - قبيل الفتح الإسلامي - بين الفُرس والروم البيزنطيين، لقد تَقدَّم الفُرس واحتلوا أنطاكية سنة 611، ثمَّ القدس سنة 614 ، ثمَّ مصر سنة 619 ، ولكن هرقل Heraclius ، إمبراطور بيزنطة [610 - 641] ردَّ الفُرس إلى ماوراء نهر الفرات، واسترد عود الصَّليب سنة 622 ، ثمَّ كان - بعد عشر سنوات فقط - الفتح العربي الإسلامي، فانكسرت جيوش هرقل، وخسرت بيزنطة سورية وفلسطين «أي بلاد الشّام»، وببلاد ما بين النهرين ومصر.

فإن وجدت في بلاد الشّام كنائس مهدمة مع بدايات الفتح العربي الإسلامي - أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فهي من آثار الحروب الفارسية البيزنطية قطعاً.

## ثامناً :

يا أخت، وأخيراً، وبشكل عام، لم يكن فيكتور هوغو أول من افترى، وأخر من أسقط علينا سينات قومه.

إن افتراءات المستشرقين تتكرر على رأس كل جيل، أولئك ركزوا على أمور أعيدت في كل كتاباتهم، أهمها:

- محمد ليسنبياً، لأنَّه تلقى القرآن من ورقة بن نوفل، أو بحيري ...

- والإسلام مزيج من اليهودية والنصرانية والوثنية.

- وانتشر الإسلام بالسيف، حين قال للناس: أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم<sup>(1)</sup> ...

ويقع المبشرون بذلك «بالياسقاط»، ولو ألموا أنفسهم البحث العلمي الذي يفرض على الباحث الحر المنصف أن يدرس الإسلام كما يعتقد أهله، مجرداً من نزعاته السابقة، غير جاعل لصلبيته سلطاناً على حكمه: «حتى لا تسيره في دراسته، وتتحكم في اتجاهاته، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم، والتزيد ليس من شيمة العلماء، أو يدفعه لأن يتأنّل

---

(1) - قدمنا في كتاب «الإسلام في قفص الاتهام» ردًّا ونقض هذه الافتراطات وعشرات غيرها.

كلامهم بغير ما يريدون، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها، بل يدركها كما انعكست في نفسه، وكما رُسِّمَت على قلبه، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته<sup>(1)</sup>.

ونحن لانريد أن نهاجم اعتقاداً، أو نُبْطِل عقيدة، فعندها من سعة الصدر ما يتسع لرد افتراءاتهم وഫواتهم، ولكننا نذكر هؤلاء المبشررين الذين «أَسْقَطُوا» علينا مافيهم، وما عندهم، أن مجمع نيقية 325 م أمر بتحريق الكتب التي تختلف رأيه، وتتبعها في كل مكان، وحث الناس على تحريم قراءتها، فهو بهذا منع أن يصل الناس إلى علم بأي أمر من الأمور التي تختلف رأيه، ومنعها منعاً باتاً جازماً أن تقرأ غيره، وسد عليها منافذ النور للامتداء إلى ما يخالفه، والمجمع مخطئ في ذلك التحرير، وأثم في ذلك التحرير، بل إن المجامع العامة من بعده خطأته، فأعادت إلى حظيرة التقديس كتبًا حرمها.

يقول المؤرخ أبوسيبيوس الذي تقدس الكلمة، وتسمى سلطان المؤرخين: «إن قسطنطين<sup>(2)</sup> عمد حين كان أسير الفراش، وأن الذي عمده هو ذلك المؤرخ نفسه، وقد كان صديقاً له»، والتعميد إعلان دخول المسيحية، إذاً قسطنطين ما كان

(1) - محاضرات في التصريانية، ص : 8.

(2) - قسطنطين بن قسطنطيوس كلورس [337 - 274]، امبراطور روماني منذ سنة 306، هزم خصمه ماكسانس على أبواب روما سنة 312، وأطلق العربية للدين المسيحي، أسس عاصمة جديدة سمّاها القسطنطينية ويشتهرها سنة 330 م.

مسيحيًا في إبان انعقاد ذلك المجمع، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء، ويسوغ لنا أن نقول إنه كان في هذا أرب خاص، هو تقريب المسيحية من الوثنية، أو على الأقل حينما رجح رأي فريق على آخر، كان يرجح ما هو أقرب إلى وثنيته<sup>(1)</sup> ولقد كثرت الأنجليل كثرة عظيمة، أجمع على ذلك مؤرخو النصرانية، ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي، وأوائل القرن الثالث، أن تحافظ على الأنجليل الصادقة في اعتقادها، فاختارت هذه الأنجليل الأربع، وألزمت المسيحيين بها، وفرضت عليهم سلطاناً كهنوتيًا أبعدهم عما في أنجليلهم، ماذا كان في هذه الأنجليل التي ألغيت؟ وقد ثبت أن قسطنطين هو الذي رسخ التثليث ودعمه على حساب التوحيد.

والغريب أن المبشرين يؤمنون بعشرات الأنبياء لبني إسرائيل، فأيّة صفة فيهم لانجدها في محمد بن عبد الله؟.

وما الأدلة والمعجزات التي قاموا بها، ولا نجد لها في محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إن لم نجد أعنده منها عنده؟.

---

(1) - محاضرات في النصرانية، ص : 128 / 130.

وماذا يضير هؤلاء المبشرّين في انتشار عقيدة الإسلام  
على سطح كرتنا الأرضية، وقد طرحت مبدأ المُواخاة والتّسامع،  
ولم تجعلها شعاراً، بل منهاجاً أثبتته الواقع والأعمال في كل بلد  
فتحه المسلمين؟

لقد كان من المفروض - بدل الافتراءات والشبهات - أن  
يطبع النصارى القرآن الكريم مع إنجيلهم، طبعوا التوراة وهي  
لم تذكر السيد المسيح وأمة الطاهرة البَتُول ولو مَرَّة واحدة، أمّا  
القرآن الكريم، فتَلَّه حياة مريم والمسيح.

جاء في القرآن الكريم سورة عائلة السيد المسيح: «آل  
عمران»، و «آل» كلمة تُخاطب بها العائلات الكريمة الطيبة  
الشّرِيفَة .

وسورة باسم معجزة السيد المسيح «المائدة» وفيها ثلاثة  
معجزات للسيد المسيح لم تذكرها الأناجيل، وهي:  
1 - نُزُول المائدة:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ  
رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَ قُلُوبُنَا  
وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ \*

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لَأُولُنَا وَآخِرَنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ \* قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرُ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنَّمَا أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ »

{المائدة . 5 - 112 / 115}

## 2 - وإحياء الطير:

« ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةً الطَّيْرَ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبَرِّئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ... »

{المائدة : 5 / 110}

## 3 - والتكلم بالمهد

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالدِّيَكَ إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدْسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا<sup>(1)</sup> ... »

{المائدة . 5 / 110}

(1) - وفي سورة مریم [19 / 29-33]: «... قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا»، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَثَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي ثَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَنْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزُّكَرَةِ مَادَمْتُ حَيًّا، وَبَرَأَ بِوَالدِّيَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيقًا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبَعْثَرُ حَيًّا».

وَسُورَةٌ بِاسْمِهِ وَالدِّتَّهِ الْبَتُولُ «مَرِيمٌ»:

«وَادْعُوْرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيمَ إِذْ أَنْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا  
مَكَانًا شَرْقِيًّا \* فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلَنَا إِلَيْهَا  
رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا \* قَالَتْ إِنِّي أَغُوذُ بِالرَّحْمَنِ  
مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا \* قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لَا هَبَّ لَكِ  
غَلَامًا زَكِيًّا \* قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي  
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا \* قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيْهِ هِينَ  
وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا» .

(مريم : 19 / 16 - 21)

وَسُورَةٌ بِاسْمِ الْأَتْبَاعِ «الْكَهْفُ» :

﴿... إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْتَاهُمْ هُدًى بِهِ﴾ .

(الكهف : 18 / 13)

وَكُلُّهَا مِنَ السُّورِ الطَّوَالِ.

لقد فتح القرآن باب التسامح على مصراعيه حينما فتح  
حواراً مع المسيحية عن طريق سورة المائدة (5 / 82 و 83) :

﴿ وَلَتَجَدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوْدَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَاتَلُوا إِنَّا  
نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسَيْسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ  
لَا يَسْتَكْبِرُونَ \* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزَلَ إِلَيَ الرَّسُولِ تَرَى  
أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ  
رَبُّنَا آمَنَّا فَاقْتُلْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وعن طريق سورة مريم وآل عمران، حيث التقدير  
والاحترام لل المسيح وأمه الطاهرة :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ  
وَظَهَرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ \* يَا مَرْيَمُ اقْتُنِي  
لِرَبِّكِ وَاسْجُدْيِ وَارْكَعْيِ مَعَ الرَّاجِعِينَ ﴾ .

{آل عمران: 43 / 3}

ولو وجدنا في الإنجيل:

« واذكر في الكتاب خديجة، أو أمينة، أو إن الله اصطفى  
فاطمة ... »

لكان الحب واللقاء مع من يُعظّم ويقدر ويُبجل، ولرددنا  
التّحية بأحسن منها، أو بمتلها على الأقل.

والتسامح وفتح الحوار للتآلف أمر طبيعي في الإسلام،  
لستة صدره من ناحية ولعله من ناحية ثانية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا  
وَبَيْنَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذُ  
بَعْضُنَا بَعْضًا أُرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا  
ا شَهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ هُمْ﴾.

{آل عمران : 64 / 3}

قال رجا غارودي: «لم يدرس الغربُ الإسلام دراسةً  
صحيحة، حتى في الجامعات الغربية، وربما كان هذا مقصوداً  
مع الأسف».

ولذلك .. ألف الكاتب البريطاني (جان دوانبورت) كتاباً  
عنوانه: «اعتذار لمحمد والقرآن»، اعتذر فيه مؤلفه عن التصورات  
والأحكام التي كانت شائعة في الغرب حولنبي الإسلام صلى  
الله عليه وسلم .

كتَّبت المستشرقة الفرنسيَّة مُعْظَم ما قُلَّتْ، ثُمَّ قالتَ:  
سأُعيِّد النَّظر في رسالتي، وبما كتبت فيها وأنا في  
فرنَسَة، وأَمَلُ أَنْ أُنْقُل وجْهَةَ نظرك هذه بآمانة، وسأُخَالِف  
فيكتور هوغو بما قال وقرَّدَ.

قُلَّتْ: وأنا سأُسجِّل مادَار بَيْنَنَا من حوارٍ خطِّيئاً، ومع أنَّ  
سِيَاسَةَ الغَرْب مُبْنِيَّةٌ عَلَى مَهَادِنَةِ الإِسْلَامِ رَيْثُمَا تَتَمَّ الْغَلْبَةُ عَلَيْهِ،  
سَتَبْقَى سِيَاسَةُ الإِسْلَامِ - وَالْمُسْلِمِينَ - التَّسَامُحُ وَفَتْحُ بَابِ  
الْحَوَارِ مَعَ الْعَقَائِدِ الْأُخْرَى، وَأَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْمَرْحَلَةُ الْقَادِمَةُ، وَقَدْ  
أَشْرَفْنَا عَلَى مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعَشَرِينَ، مَرْحَلَةُ الْإِنْتِفَاعِ مِنْ  
الْخَيْرِ أَيْنَمَا وُجِدَّ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَ الإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ، وَمَرْحَلَةُ اتِّبَاعِ  
الْحَقِيقَةِ وَلَوْ خَالَفَتْ مُسْلِمَاتٍ كَنَا نَحْمِلُهَا عَنِ الشَّرْقِ وَأَهْلِهِ.

وَيَعْدُ مَجَامِلَاتُ، اسْتَأْذَنْ زَمِيلِي وَاسْتَأْذَنْتُ، فَوَدَعْتُهُمَا  
قَائِلَّاً:

سَأَنْشُرُ مادَار بَيْنَنَا مِنْ حَوَارٍ، بَعْدِ إِضَافَةِ ثَلَاثَ نَقَاطٍ:  
1 - مَعْنَى التَّسَامُحِ لِغَوِيَّاً.

- 2 - كيف انتشر الإسلام، وتسامحه وهو في أوج قوته  
وانتصاره، وكيف انتشرت المبادئ الأخرى؟ !
- 3 - مع تسجيل بعض الشهادات المنصقة عن تسامح  
الإسلام وأهله.

## التسامح

جاء في [اللسان: سمح]:

السماح والسماحة: الجُود، سَمْحَة سَمَاحَةً وسُمُوحةً  
وسِماحاً: جاد، ورجل سَمْحَة، وامرأة سَمْحَة من رجال ونساء  
سِماح وسِمَحاء فيهما، ورجل سَمِيعٌ وسِمْفَحٌ وسِمْفَحَة: سَمْحَة  
ورجال مَسَامِيح ونساء مَسَامِيح.

يقول جرير:

غَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً  
 وَكَفَى قُريشَ الْمُعْضِلَاتِ، وَسَادَهَا

وقال آخر:

فِي فِتْيَةِ بُسْطِ الْأَكْفَافِ مَسَامِيحٌ  
 عِنْدَ الْفِضَالِ نَدِيمُهُمْ لَمْ يَذَئِ

وسمح لي بذلك يَسْمَحُ سماحة، وأَسْمَحَ وسامح، وافقني  
على المطلوب، أنسد ثغلب :

لو كنْتَ تُعْطِي جِينَ تُسْأَلُ سامحتَ  
لَكَ النَّفْسُ، وَاحْلُولَكَ كُلُّ خَلِيلٍ  
والمسامحة: المساهلة، وتسامحو : تَسَاهَلُوا.

وفي الحديث الشريف:  
«يقول الله عز وجل: أَسْمِحُوا لعبدي كإسماحه إلى  
عبادِي».

الإسماح: لغة في السماحة، يقال سَمَحَ وأَسْمَحَ إذا جاد  
وأعطى عن كَرَمٍ وسَخاءً.

وفي الحديث المشهور: «السماحة رَبَاحٌ»، أي المساهلة في  
الأشياء تُربِّحُ صاحبها، وسَمَحَ وَتَسْمَحَ: فَعَلَ شَيئاً فَسَهَلَ فِيهِ،  
أنشد ثغلب:

ولكَ إِذَا ماجَلَ حَطَبْ فَقَسَامَحَتْ  
بِهِ النَّفْسُ يَوْمًا، كَانَ لِلْكُرْهِ أَذْهَبَا  
قال ابن الأعرابي: سَمَحَ له بحاجته وأَسْمَحَ، أي سَهَلَ له.  
وسئل ابن عباس عن رجل شرب ليناً مَحْضًا أَيْتَوْضًا؟

قال: اسْمَحْ يُسْنَمَحْ لَكَ، وَمَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُ الْأَصْمَعِي -  
سَهَّلْ يُسْهَلْ لَكَ وَعَلَيْكَ، وَأَنْشَدَ:  
فَلَمَا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحْتَ  
قَالَ: أَسْمَحْتَ أَسْهَلَتْ وَانْقَادَتْ.  
وَتَقُولُ الْعَرَبُ: عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّ فِيهِ لَمَسْمَحَاً، أَيْ مَتَسْعَاً.  
وَعُودْ سَمْحَ بَيْنَ السَّمَاحَةِ وَالسُّمُوحَةِ: لَا عُقْدَةَ فِيهِ.  
وَيَقُولُ: سَاجَةٌ <sup>(١)</sup> سَمْحَةٌ إِذَا كَانَ غَلَظُهَا مُسْتَوِيَ النَّبْتَةِ  
وَطَرْفَاهَا لَا يَفْوَتَانَ وَسْطَهُ  
وَتَسْمِيعُ الرُّمَحِ: تَتَقْيِيفُهُ <sup>(٢)</sup>، وَرَمَحْ مُسْمَحٌ: ثَقَفٌ حَتَّى لَأَنَّ  
وَالْتَّسْمِيعُ: السُّرْعَةُ، وَقِيلَ: التَّسْمِيعُ: السَّيْرُ السَّهْلُ.

\* \* \*

---

(١) - السُّاج: خشب يجلب من الهند، واحداته ساجة، [اللسان - سوق]

(٢) - تتقيف الرماح : تسويتها ، التكاف : ما شُنُوئ أو تقعُ به الرماح ،  
[اللسان : ثقف].

وفي الأحاديث الشريفة:

- «اسمح يُسمح لك<sup>(1)</sup>»، أي سهل يُسْهَل عليك.
- «إِنِّي أَرْسَلْتُ بِحَنِيفَةَ سَمْحَة<sup>(2)</sup>»، أي ليس فيها ضيق ولا شدة.
- «أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ سَمِعَ الْبَيْعَ، سَمِعَ الشَّرَاءَ، سَمِعَ الْقَضَاءَ، سَمِعَ الْاِقْتِضَاءَ<sup>(3)</sup>».
- «رَحْمَ اللَّهِ عَبْدًا سَمِحًا إِذَا بَاعَ، سَمِحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمِحًا إِذَا اقْتَضَى<sup>(4)</sup>».
- «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفَةَ السَّمْحَةَ<sup>(5)</sup>».
- «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمْاحَتِهِ<sup>(6)</sup> ...».
- «السَّمَاجُ رَبَاحٌ<sup>(7)</sup>»، أي المُسَاهِلةُ فِي الْأَشْيَاءِ يَرْبُحُ صَاحِبَهَا.

---

(1) - رواه الإمام أحمد 1 / 248، ورواه رجال الصحيح، إِلَّا مُهَدِّي بْن جعفر.

(2) - رواه الإمام أحمد 6 / 116.

(3) - رواه الطبراني في الأوسط، ورواته ثقة.

(4) - رواه البخاري، وأبي ماجه، والترمذى.

(5) - رواه البخاري، والإمام أحمد 1 / 236.

(6) - رواه الإمام أحمد 3 / 210، ورواته ثقة مشهورون.

(7) - النهاية في غريب الحديث والاثن، لأبي الأثير الجزري: 2 / 298، تحقيق محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية ط، 1963.

لم يَرِدْ فعل (سمَح) ومشتقاته في القرآن الكريم، ولكن  
وردت كلمات تعطي المعنى ذاته، هي:

«الصَّفَحُ» و «الإِحْسَانُ»، اللَّذَانِ هُما: ضد التَّعْنُتِ،  
والتَّعْصُبِ، والتَّطْرُفِ، والْغَلُوِ.

### 1- الصَّفَحُ:

- (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مَّنْ بَعْدَ  
إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مَّنْ بَعْدِي مَا تَبَيَّنَ  
لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

(البقرة/109)

- (فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ  
قَاسِيَةً يُعْرِفُونَ الْكَلَمَ عَنْ مُّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًا مِّمَّا  
ذَكَرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطْلُعُ عَلَىٰ خَائِنَتِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ  
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحَسِّنِينَ).

(المائدة: 13/5)

- (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا  
بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيهَا فَاصْفَحْ الصَّفَحَ الْجَمِيلَ).

(الحجر: 85/15)

- حَوْلًا يَأْتِلُ<sup>(1)</sup> أُولَئِنَّا الْفَضْلُ مِنْكُمْ وَالسُّعَةُ أَنْ  
يُؤْتُوا أُولَئِنَّا الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمَهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ  
غَفُورٌ رَّحِيمٌ **۝**

{النور : 24 / 22}

- فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ **۝**

{الزُّخْرُف : 43 / 89}

## 2- الإِحْسَان<sup>(2)</sup>:

- ... وَقُلُّوا لِلنَّاسِ حُسْنَا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَآتُوا الزَّكَاةَ ... .

{البقرة. 2 / 83}

- ... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ **۝**  
{البقرة : 2 / 195}

---

(1) - لا يأْتِلُ. لا يُقْسِمُ.

(2) - آيات الإِحْسَان في القرآن الكريم كثيرة، ننتقي بعضها فقط.

- {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ  
الْحَسَنَةِ وَجَاهِلُهُمْ بِالِّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا  
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} م

{النحل : 16 / 125}

- {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي  
الْقُرْبَى وَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْظِمُ  
لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ} ه

{النحل 16 / 90}

- {ادْفُعْ بِالِّتِي هِيَ أَخْسَنُ السُّيَّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا  
يَصْفُونَ} ه

{المؤمنون : 23 / 96}

- {وَابْتَغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ  
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْسِنْ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ  
الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} ه

{القصص : 28 / 77}

- حَوْلًا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ  
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزَلَ إِلَيْنَا  
وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

{العنكبوت : 29 / 46}

- حَوْلًا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعُ بِالَّتِي  
هِيَ أَخْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

{فصلت . 41 / 34}

\* \* \*

## فَالْتَّسَامُحُ :

الَّذِي هُوَ الصَّفَحُ وَالْعَفْوُ وَالْإِحْسَانُ.

وَالَّذِي يَقْابِلُهُ التَّعْنُتُ وَالتَّعَصُّبُ وَالتَّطَرُّفُ وَالْغُلُو ...

نظرة إنسانية لا يمتلكها إلا الإسلام، «فِيَنِمَا يَقْبِلُ  
الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ وَجُودُ أَدِيَانٍ مُّغَايِرَةٍ لِدِيَنِهِمْ، وَيَرْفَضُونَ إِكْرَاهَ  
أَحَدٍ عَلَى تَرْكِ مُلْتَهِ، وَيَرْضُونَ أَنْ يَتَأَلَّفَ الْمُجَمَعُ مِنْ مُسْلِمِينَ  
وَغَيْرِ مُسْلِمِينَ، وَيَشَرِّعُونَ نُظُمًا عَادِلَةً لِتَطْبِقَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ فِي  
ذِمَّتِهِمْ مِنْ مُسِيَّحِيِّنَ أَوْ يَهُودَ.

بينما نفعل ذلك، نرى المسيحية تتبرّم من الديانات الأخرى، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها، أو تحقيرهم وحرمانهم، حتى ترغمهم على ترك دينهم وتجبرهم على النصرانية جبراً.

وبينما يقول القرآن:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

{البقرة: 256}

تنسب الكتب المقدسة إلى المسيح أنه قال لحواريه:  
أجبروهم على اعتناق دينكم<sup>(1)</sup>.

\* \* \*

ولكن كيف نوّقق بين تسامح الإسلام، وبين الآيات الكريمة التالية:

- ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

{آل عمران: 28/3}

---

(1) - التّعصُّب والتّسامح، محمد الغزالى، ص: 56.

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا الْيَهُودَ  
وَالنَّصَارَى أُولِيَّاً لَّهُمْ).

{المائدة : 51 / 5}

- (وَكَيْفَ وَإِن يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيمُكُمْ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ).

{التوبه : 9 / 8}

الآيات السابقة لاصلة لها بالبِتَّة بموقف الإسلام المتسامح.  
لأنها وردت في المعدين على الإسلام والمحاربين لأهله، وتنفير  
أفراد الأُمَّة من معاونة خصومها واجب يتجدد في كل عصر.  
فصدر قانون يحرّم التعاون مع قوّات أجنبية، لا يفهم منه  
بغضاء للعالم أجمع، وأنه يشتري خصومة العالم من غير  
مبُرُّد.

لقد قال السُّيُّدُ المسيح:

«ما جئت لأنقي سلاماً بل سيفاً<sup>(1)</sup>»

فهل يفهم أحد من ذلك أن رسالة المسيحية إيقاد الحروب  
في الأرض، وأنها لا تحيى بين النّاس إلّا لسفك الدّماء؟

---

.34 / 10 : إنجيل متى (1)

إِنَّ الْإِسْلَامَ يُدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ إِذَا هُوَجُمْ، وَيَأْمُرُ بِمُسَالَةِ مَنْ  
يَتَرَكُونَهُ وَشَاءَنَهُ، غَيْرَ مَتَّرَضِينَ لِسَيرِ دُعْوَتِهِ فِي الْأَرْضِ،  
وَلَا صَادِينَ أَحَدًا عَنِ الدُّخُولِ فِيهَا<sup>(١)</sup>.

﴿... لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أُولَئِكَ...﴾

{المائدة ٥١ / ٥}

الآيات الأَحَقَةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْمُرْتَبَطَةِ بِهَا فِي مَوْضِعِهَا تَحدِّدُ  
الْمَوْضِعَ بِجَلَاءِ لَا يَحْتَمِلُ خُلْطًا.

«فَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَاتِ نَزَّلَتْ تَطْهِيرًا لِلْمَجَمِعِ» الإِسْلَامِيُّ مِنْ  
الْأَعْيُبِ الْمَنَافِقِينَ، وَمِنْ مَؤَامِرَاتِهِمُ الَّتِي تَدْبِرُ فِي الْخَفَاءِ لِمُسَاعَدَةِ  
فَرِيقٍ مُعِينٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَعْلَنُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَرْبًا شَعْوَاءَ،  
وَاشْتَبَكُوا مَعَ الدِّينِ الْجَدِيدِ فِي قَتْلِهِمْ بِالنَّسْبَةِ لَهُمْ قَتْلَ حَيَاةٍ  
أَوْ مَوْتٍ.

فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْمٌ يَحْارِبُونَ الْمُسْلِمِينَ  
فَعَلَّا، وَقَدْ بَلَغُوا فِي حَرْبِهِمْ مَنْزِلَةَ مِنَ الْقُوَّةِ جَعَلَتْ ضَعَافَ  
الْإِيمَانِ يَفْكَرُونَ فِي التَّحْبُّبِ إِلَيْهِمْ، وَالتَّجْمُلِ مَعْهُمْ، فَنَزَّلَتْ هَذِهِ  
الْآيَةُ وَنَزَّلَ مَعَهَا مَا يَفْضُحُ نَوَّايَا الْمُتَخَازِلِينَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ  
الَّذِي انتَسَبُوا إِلَيْهِ:

---

(١) - التَّعْصُبُ وَالْتَّسَامِحُ، ص: 40.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ  
يَقُولُونَ تَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ  
بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي  
أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

{المائدة : 52 / 5}

ثم تستطرد الآيات في توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم  
أمام المتربيين والمتهمين تطالبهم بمقاطعة المحاربين للإسلام  
من أهل الكتاب مسوغة هذه المقاطعة بأنها رد للعدوان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا  
دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبَا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ  
وَالْكُفَّارُ أُولَئِكَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَإِذَا  
نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوا وَلَعِبَا ...﴾

{المائدة : 57 / 58}

فهل هناك ضير على دين ما، إذا منع أتباعه من مصادقة  
الذين يتهكمون بتعاليمه، ويسيرون من شعائره؟  
أما قوله تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقِبُوا فِيْكُمْ إِلَّا وَلَا  
ذِمَّةٌ ...﴾.

{التوبه : 9 / 8}

فالآية قبلها مباشرة تشرحها :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ  
إِلَّا الَّذِينَ عَااهَدُتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا أَسْتَقَامُوا لَكُمْ  
فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ... بِمِنْهُمْ .

{الترية : 7 / 9}

والمعنى الذي لا يضطرب عاقل في إدراكه أن المقصود بالآية هم الوثنيون المهاجمون للإسلام، الناكثون بعهودهم معه<sup>(1)</sup>

والآية الكريمة ضريرة واضحة:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ  
وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ  
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ \* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ  
قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى  
إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ .

{المتحنة : 9 ، 8 / 60}

---

(1) - التسامح والتعصب، ص : 41، عن : «الإسلام والاستبداد السياسي».

فإِلْسَام يمْدُ يَدَهُ لِصَافَحةِ أَتْبَاعِ الْأَدِيَانِ الْأُخْرَى لِتَحْقِيقِ  
الْتَّعَاوِنِ عَلَى إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَنَشَرِ الْآمِنِ، وَصَيْانَةِ الدَّمَاءِ أَنْ  
تُسْفَكَ، وَحِمَايَةِ الْحَرَمَاتِ أَنْ تَنْتَهَكَ.

وَإِلْسَام لَمْ يَقُمْ عَلَى اضطهادِ مُخَالِفِيهِ، أَوْ مَصَادِرِ  
حَقْوقِهِمْ أَوْ تَحْوِيلِهِمْ بِالْكَرْهِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ، أَوْ الْمَسَاسِ الْجَائِرِ  
لِأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَدَمَائِهِمْ.

وَشَتَّانٌ بَيْنَ التَّسَامُحِ وَالضَّعْفِ وَالْعَجَزِ، فَكَثِيرُونَ لَا يَقْدِرُونَ  
هَذَا النُّبُلَ، وَرِبَّمَا اسْتَغْلُوا هَذِهِ السَّمَاحَةَ فِي الإِسْءَاءِ إِلَى  
إِلْسَامِ الَّذِي وَسَعَتْهُمْ دَائِرَتِهِ الْمَرْنَةِ.

## كيف انتشر الإسلام وكيف انتشرت الشعائر الأخرى؟

### اتهامات بالتعصب:

قال كارل بروكلمان: «يتحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم، لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني<sup>(1)</sup>».

«من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلا عندما كان يهدف إلى الغزو<sup>(2)</sup>».

(1) - تاريخ الشعوب الإسلامية، ص : 78.

(2) - فردرريك موريس : The Religions of The Word P.28  
Cambridge 1852

ويرجع كلٌ من ميور وكيتاني ازدياد عدد المؤمنين إلى الانتصارات العسكرية، وإكراه الناس على الدُّعوة الموجودة في تعاليم الإسلام<sup>(1)</sup>.

«وأخضع سيف الإسلام شعوب إفريقيا وأسية شعباً بعد شعب<sup>(2)</sup>.».

«إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح<sup>(3)</sup>.».

«في القرن السابع للميلاد بُرِزَ في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أَسْسَ على القُوَّةِ، وقام على أشدّ أنواع التُّعصُّبِ، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثمَّ سمح لأتباعه بالفُجُورِ والسلبِ، ووعدَ الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات<sup>(4)</sup>.».

---

(1) - الدُّعوة إلى الإسلام، ص: 469.

(2) - التُّبشير والاستعمار، ص: 41.

(3) - لطفي ليفونيان، 9:

(4) - البحث عن الدين الحقيقي، المنسنيد، ولـي، ص: 220، ط 1928.

«إِنَّ هُؤُلَاءِ الْعَرَبَ قَدْ فَرَضُوا دِينَهُمْ بِالْقُوَّةِ، وَقَالُوا لِلنَّاسِ: (أَسْلَمُوا أَوْ مُوتُوا)، بَيْنَمَا أَتَيْبَاعُ الْمَسِيحِ رِبُّهُمْ النُّفُوسَ بِإِيمَانِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ<sup>(1)</sup>».

\* \* \*

إن هذه الافتراطات تتهاوى أمام عرض سريع لحقائق التاريخ -فبعض الربيع ببعض العطر يختصر- عن انتشار الإسلام:

أذن لل المسلمين بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال في الآية الكريمة:

﴿أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ \* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... بَهُ﴾.

[الحج : 22 / 39 - 40]

﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ بَهُ﴾.

[البقرة 2 / 190]

---

(1) - تاريخ فرنسي، هـ . غيومان، ف لوستير، ص : 80 - 82.

إِنَّ الْقَتَالَ لَمْ يُشَرِّعْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا «دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ»  
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنِ الْعِرْضِ وَالْمَالِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ مَا أَرَادَ قَتَالًا أَوْ سَفْكَ دَمًا فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكَبْرِيَّ، لَقَدْ أَرَادَ  
حَرِبًا اقْتَصَادِيًّا ضِدَّ قَرِيشًا، لِيَعُوْضَ عَمَّا صُودِرَ فِي مَكَّةَ  
الْمَكْرُمَةِ .

وَفِي مَعرِكَةِ أَحُدْ أَرَادَ البقاء فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَورَةِ، وَالْمَحاَصِرَةِ  
لَدْعَ قَرِيشًا بِأَقْلَى خَسَائِرِ مُمْكِنَةِ .

وَفِي الْخَنْدَقِ - غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ - اتَّخَذَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ مَوْقِفَ الْمَدَافِعِ، وَفَرَقَ قَرِيشًا وَمَنْ مَعَهُ بِإِنْشَابِ خَلَافِ  
بَيْنِهِمْ، كَيْ لَا تُزْهَقَ أَرْوَاحُ مِنَ الْطَّرَفَيْنِ، وَحِينَ أَرَادَ فَتْحَ مَكَّةَ  
عِنْدَمَا نَقَضَتْ قَرِيشًا بِنَوْدِ صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ بِتَشْجِيعِ قَبْيلَةِ بَكْرٍ،  
عَلَى قَبْيلَةِ حُزَّاعَةَ<sup>(1)</sup> حَلِيفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَغْلَقَ  
وَقَطَعَ الطَّرِيقَ الْمَؤْدِيَّ إِلَى مَكَّةَ كَيْ يَعُودَ إِلَى بَلْدَهُ الَّتِي أَخْرَجَ  
مِنْهَا، وَلِيَفْهُمْ قَرِيشًا الَّتِي تَطاَوَلَتْ عَلَى نَقْضِ صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ وَلَمْ  
تَفْ بَعْهُدِهَا اسْتَخْفَافًا وَحَقْدًا حِينَمَا أَرَادَتِ الْقَبَائلُ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ  
تَدْخُلَ فِي دِينِ اللَّهِ بِالْاقْتِنَاعِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَلِيَفْهُمْهَا أَنْ  
دُعَايَتِهَا عَنْ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ: كَاهِنٌ، أَوْ شَاعِرٌ، أَوْ مَجْنُونٌ .. قَدْ  
تَكَشَّفَتْ أَمَامَ الْعَرَبِ الَّذِينَ رَأَوْا فِي مُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ: عَاقِلًا،  
حَكِيمًا، دَعْوَتِهِ حَقٌّ، وَرَسَالَتِهِ صَدِيقٌ .

---

(1) - الْكَاملُ فِي التَّارِيخِ: 2 / 161، وَالْطَّبْرِيُّ: 3 / 42.

لقد أراد صلی اللہ علیہ وسلم دخول مکّة دون أن تُزهق أرواح، أو تُراق دماء، فعهد إلى أمرائه حين دخوله مکّة: أن لا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم<sup>(1)</sup>.

فرسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم كان حريصاً ألا تسفك دماء، لأن الدّم العربي كان غالياً عنده، فهو الحريص على سلامته، على الرغم من شرك صاحبه ووثنيته، لأنه صلی اللہ علیہ وسلم عارف بمكانة الأمة العربية - على جاهليتها أذاك - عند اللہ سبحانه وتعالیٰ:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ<sup>(2)</sup> وَسَوْفَ تُسَأَلُونَ نَحْنُ﴾ .  
[الزُّخْرُف: 43 / 44]

هذا ما كان في الجزيرة العربية أمّا خارجها:

### بلاد الشام:

«تحول البدو المسيحيون إلى الإسلام بالتسامح<sup>(3)</sup>».

(1) - الكامل في التاريخ: 2 / 166، والطبری: 3 / 54.

(2) - أي شرف لك ولقومك.

(3) - الدّعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص: 69.

«إنَّ هذِهِ الْقَبَائِلُ الْمُسِيْحِيَّةُ الَّتِي اعْتَنَقَتِ الْإِسْلَامَ، إِنَّمَا فَعَلَتْ ذَلِكَ عَنْ اخْتِيَارٍ وَإِرَادَةٍ حُرَّةٍ، وَإِنَّ الْعَرَبَ الْمُسِيْحِيِّينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي وَقْتِنَا هَذَا بَيْنَ جَمَاعَاتِ مُسْلِمَةٍ لَشَاهِدٍ عَلَى هَذَا التَّسَامُح<sup>(1)</sup>».

وَقَالَ أَهْلُ حَمْصَ<sup>(2)</sup>: «يَا مُعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَنْتُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ الرُّومِ، وَلَنْ كَانُوا عَلَى دِينِنَا، وَأَنْتُمْ أَوْفَى لَنَا، وَأَرَأَفَ بَنَا، وَأَكْفَ عَنْ ظُلْمِنَا، وَأَحْسَنَ وَلَيْةً عَلَيْنَا، وَلَكُنْهُمْ - أَيُّ الرُّومُ - غَلَبُونَا عَلَى أَمْرِنَا وَعَلَى مَنَازِلِنَا»، وَأَغْلَقَ أَهْلَ حَمْصَ أَبْوَابَ مَدِينَتِهِمْ دُونَ جَيْشِ هَرْقُلِ.

### مَصْرُ:

«وَلَمْ يَضْعِعْ عُمَرُ - بْنُ الْعَاصِ - يَدَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَمْتَكَاتِ الْكَنَائِسِ، وَلَمْ يَرْتَكِبْ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ السُّلْبِ وَالنَّهْبِ.

وَلَيْسَ هُنْكَ شَاهِدٌ مِنَ الشَّوَاهِدِ يَدِلُ عَلَى أَنَّ ارْتِدَادَهُمْ عَنْ دِينِهِمُ الْقَدِيمِ وَدُخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى نَطَاقٍ وَاسِعٍ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الاضطهادِ، أَوْ ضَفْطِ يَقْوَمِ عَلَى دُمُّ التَّسَامُحِ مِنْ جَانِبِ حُكَّامِهِمُ الْمَدْنِيِّينَ، بَلْ لَقَدْ تَحَوَّلَ كَثِيرٌ مِنْ هُؤُلَاءِ الْقِبْطِ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَتَمَّ الْفَتْحُ<sup>(3)</sup>».

(1) - الدُّعْةُ إِلَى الْإِسْلَامِ، ص: 70.

(2) - فتوح البلدان، البلاذري، ص: 137.

(3) - الدُّعْةُ إِلَى الْإِسْلَامِ، ص: 92.

«وفي الحق إنَّ سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد<sup>(1)</sup>».

### الأندلس :

ذكر (دوзи Dozy) تسامح العرب في إسبانيا مُظهراً رحمة الفاتحين، ويسير الضرائب التي فرضت، والتي كانوا يدفعون أضعافها مضاعفة<sup>(2)</sup>، ذكر (دوзи) ذلك بكل إعجاب وفخر .

ويقول شاهد عيان (John of Garz) الذي زار إسبانيا حول منتصف القرن العاشر الميلادي: «ويستخدم المسيحيون الذين كانوا إبان حكم الإسلام الأماكن المقدسة وأملاكهم بحرية<sup>(3)</sup>» .

وقال آخر. «ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية<sup>(4)</sup>».

---

(1) - الدُّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ، ص : 157.

(2) - المرجع السَّابِقُ، ص . 175 أَيْضًا.

John.of Garz P.352 - (3)

Eulogiu, Men, Sanct lib. i.30 - (4)

## السند :

جاء في كتاب «فتح السند<sup>(1)</sup>» :

«ثم أعطي الأمان للصناع والتجار وعوام الناس، وتركوا بعضًا من أسراهם، وتشكّلت محكمة لرد المظالم<sup>(2)</sup> .. ثم نودي على العوام المتضررين بالحرب، والذين نهبت أموالهم أثناء القتال من عوام الناس والصناع والتجار والكسبة الصغار، وتقرر إعطاء كلّ منهم اثني عشر درهماً<sup>(3)</sup>.»

. ثم أعطيت الحرية الدينية لسكان المدن التي فتحت.

وتتكرر عبارة :

«واجتمع الصناع والتجار والعمال وأرسلوا رسالة إلى محمد بن القاسم التقي يطلبون فيها الأمان، فأعطياهم الأمان<sup>(4)</sup>.»

---

(1) - فتح السند، أبو المظفر محمد بن سام. تحقيق د. سهيل زكار، نشر دار الفكر - بيروت.

(2) - المرجع السابق، ص : 2472.

(3) - المرجع السابق، ص : 2478.

(4) - المرجع السابق، ص : 2702.

## ماوراء النهر :

### **«قضية خالدة في تاريخ الإنسانية»:**

فتح المسلمين مدينة سمرقند التي عُرفت في الإسلام بعد ذلك بأنّها من مواطن الحضارة الإسلامية، فتحها سعيد بن عثمان في عهد الأمويين، ثم فتحها عنوة<sup>(1)</sup> بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك.

قبل أهل سمرقند الأمر على مضض، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة 99 هـ، وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحق ووفائه وبغضه للظلم، أنابوا عنهم وفداء يلقى الخليفة، يشكون ما كان من قتيبة معهم.

ولقي الخليفة وفهم، فعرضوا الأمر عليه، وقالوا فيما قالوه إن قتيبة غدر بنا ظلماً، وأخذ بلادنا، والأمر إليك لترفع عنا مانزل بنا على يديه، فتناول الخليفة قرطاً وقلماً، وكتب إلى سليمان بن أبي سرح عامله على سمرقند كتاباً قال فيه:

إنَّ أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس لهم قاضياً يقضي بالحق في هذه الظلمة.

---

(1) - فتحها عنوة شيء، وفرض الإسلام بالسيف شيء آخر

وعاد وفدهم بكتاب الخليفة إلى عامله، فأحال قضيتيهم إلى القاضي جمّيع بن حاضر الناجي قاضي سمرقند، فاستمع إلى ظلامتهم، واستدعي شهودهم عليها، ثم استدعي شهوداً من الجيش الذي حضر الموقعة مع قتيبة فشهدوا بالحق، شهدوا أنَّ قتيبة لم ينذر إلَيْهم عهدهم، بل فاجأهم بفتح.

ولما وُضِعَ هذا أمام القاضي، أصدر حكمه في هذه القضية صريحاً لاغموض فيه، قوياً مجلجلأً ناطقاً بعدلة الإسلام وسماحته، قال القاضي: على الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أن يتأنَّب للخروج منها فوراً، كذلك يخرج منها المسلمون الذين دخلوها بعد الفتح.

لقد كان لهذا الحكم رجَّةٌ في أنحاء سمرقند، إذ ما كان يتصرُّ أحدٌ أنَّ تعاليم الإسلام تمضي على هذا التَّحوُّل، وتعطي الحقَّ للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقرَّ فيه.

وأسرع الوالي يخطر الخليفة بالحكم ويطلب مشورته، فجاء الرَّدُّ بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره، وعندئذ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهُّب للرُّحيل، وإلى المسلمين المدنيين بمقابلة سمرقند.

وبينما هذا يجري على قدم وساق، والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ويفك مخيماته، وبينما المسلمين المقيمون بالمدينة يودعون أهل سمرقند، ويحزمون أمتعتهم، ويعلنون بيع أملاكهم فيها، وإذا بمفاجأة تَجِدُّ لم تكن في الحسبان، فقد جاء وقد يمثل أهل سمرقند إلى الوالي، وأبلغوه أنَّهم تشاوروا فيما بينهم، بعد هذا الحكم، الذي ما دار بخلدهم لحظة واحدة أنَّ تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله، وأنَّهم ما كانوا يتوقعون أنَّ هناك قاضياً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحه، وأنَّهم ما كانوا يتصورون أنَّ القاضي سيهمل في القضية عصبيَّته لقومه، ولا يغيرها اعتباراً ولا وزناً، وأنَّهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر مع انصياع الجميع له، دون أن يكون هناك اعتبار لما يتربَّ على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم.

أمام هذا، وأمام حسن المعاملة التي وجدوها من إخوانهم المسلمين المقيمين بالبلد حال إقامتهم فيها، لايسعهم إلا أن يعلنو عن تنازلهم عن حقَّهم، والمطالبة ببقاء الحال على ماهي عليه، لأنَّهم لن يخشوا بعد اليوم ضرراً ينالهم، وإزاء هذه الرغبة الصادقة من أهل سمرقند، أمرَ الجيش بالبقاء، وأمرَ المسلمين بعدم الخروج، وكانت فرحة مزدوجة من الجانبين.

وكانت هذه القضية سبباً في إسلام كثير من أهل سمرقند، وانضواوهم تحت راية الإسلام، والإخلاص لتعاليمه، والعمل على نشرها، والاستمساك بما أمرت به، والاعتصام بحبل الله المtin، حتى غدت سمرقند بعد مركزاً من المراكز الإسلامية المرموقة، يأتيها الدّاني والقاصي للتزود بزاد المعرفة من علمائها<sup>(1)</sup>.

### وبعد فتح القسطنطينية :

«ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني (محمد الفاتح) بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين، بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين، تحريماً قاطعاً، ومنع البطريرق الجديد، مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولرؤوسه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق، وقد تسلم جناديوس أول بطريرق بعد الفتح العثماني من يد السلطان نفسه عصا الأسقفيّة التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية<sup>(2)</sup>.

(1) - الطبرى : 6 / 567.

(2) - الدّعة إلى الإسلام، ص : 170 - 171.

ولقي الفاتحون «في بقاع كثيرة من المملكة - البيزنطية - ترحيباً من جانب الإغريق، فقد عدوهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حكم الفرنجة وأهل البندقية، وقد صيروا - أي الفرنجة - الشعب في حالة من العبودية يرثى لها<sup>(1)</sup>».

ووضح كثير من المؤرخين حالة دولة بيزنطة قبل الفتح،  
كقولهم:

«إنَّ أَيَّةً دُولَةٍ لَا تَخَافُ الْقَانُونَ تَشَبَّهُ فَرَسَأً مِنْ غَيْرِ زَمَامِ،  
لَقَدْ سَمِعَ قَسْطَنْطِينٍ وَأَسْلَافَهُ لِأَكَابِرِ دُولَتِهِ بِأَنَّ يَسْتَبِدُوا بِالشَّعْبِ،  
فَلَمْ تَعُدْ فِي مَحَاكِمِهِمْ عَدْلَةٌ، وَلَا فِي قُلُوبِهِمْ شَجَاعَةٌ، وَجَمِيعُ  
الْقَضَايَا التَّرْوِياتُ مِنْ دَمْوعِ الْأَبْرِيَاءِ وَدَمَائِهِمْ<sup>(2)</sup>».

ولكن الفاتحين المسلمين بعد هذه الصورة القاتمة: «استطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها، ووجدنا تنظيمًا رائعًا في الشؤون المدنية والقضائية<sup>(3)</sup>».

وتقبل كثيرون جداً الإسلام واعتنقوه، لماذا؟

---

(1) - الدُّعْوَةُ إِلَىِ الإِسْلَامِ، ص : 172، عن رِحَالَةِ مُعاصرِ لِفَتْرَةِ الْفَتْحِ وَهُوَ The Travels Of Martin Baumgarten, P.373.

(2) - الدُّعْوَةُ إِلَىِ الإِسْلَامِ، ص : 173

(3) - الدُّعْوَةُ إِلَىِ الإِسْلَامِ، ص : 174.

«لقد أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي  
لأفراد الكنيسة الشرقية<sup>(1)</sup>».

وممّا يذكر أن حرباً وقعت بين العثمانيين والجريّن، فبحث جورج برانكوفتش عن جون هنريادي وسأله: ماذا تصنع لو انتصرت؟ فأجاب: أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية، ثم بحث عن السلطان العثماني وسأله : ماذا تصنع لدينا لو انتصرت؟ فأجاب:

«أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد، وأدع مطلق الحرية لكل فردٍ في أن يصلّي في أيهما شاء<sup>(2)</sup>».

\* \* \*

ويطول الحديث عن انتشار الإسلام بالحكمة والوعظة الحسنة، والاقناع والفكر، وبالتسامح وصل الإسلام إلى سيريرية، وجنوبي الهند، وسيلان، وجزر مالديف «Maldives» ولكديف في المحيط الهندي، وإلى التبت، وإلى سواحل الصين، وإلى الفلبين وجزر أندونيسية وشبه جزيرة الملايو. وبالتسامح والدعوة وحدها وصل الإسلام أيضاً أواسط إفريقياً.

(1) - الدعوة إلى الإسلام، ص: 187.

(2) - المرجع السابق، ص: 223، عن:

## ماذا قالَ المسيحيُونَ عن معاملة الغازيين لهم؟

قال البطريرق النسطوري (يشوع باف الثالث) في رسالة بعثها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس:

«إنَّ العربَ الَّذِينَ مِنْهُمْ أَنْجَلَ اللَّهُ سُلْطَانَ الدُّنْيَا، يُشَاهِدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَهُمْ بَيْنَكُمْ كَمَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ حَقُّ الْعِلْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ لَا يَحَارِبُونَ الْعِقِيدَةَ الْمَسِيحِيَّةَ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، يَعْطَفُونَ عَلَى دِينِنَا، وَيَكْرِمُونَ قَسْنَا وَقَدِيسِيِّ الرَّبِّ، وَيَجُودُونَ بِالْفَضْلِ عَلَى الكنائس والأديار».

ويعلق توماس أرنولد على هذه الرسالة بقوله:

«تحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد<sup>(1)</sup>».

---

(1) - الدُّعَوةُ إِلَى الإِسْلَامِ، ص: 102.

وتقول المستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري) عن روعة انتشار الإسلام:

«أية قوة عجيبة تكمن في هذا الدين؟

أية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصلب به؟

ومن أي غور سحيق من أغوار النفس الإنسانية ينبع نداوة استجابة مزلزلة؟<sup>(1)</sup>.

ووصف الكونت هنري دي كاستري المسلمين بقوله:

فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

ولم يُذكر أحد على الإسلام بالسيف، ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق و اختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من موهب التأثير والأخذ بالأكباب<sup>(2)</sup>.

\* \* \*

---

(1) - دفاع عن الإسلام، ص : 40.

(2) - الإسلام خواطر وسوانح ، ص : 35.

## كيف انتشرتِ الشرائع الآخريّ؟

البوذية<sup>(1)</sup> :

لأشان لها قبل (أزوكا) الذي اعتنقها واهتم بنشرها خارج مملكته حتى وصل سيلان وبورما، فازوكا تبناها وأخذ بنشرها حتى شملت جنوب شرق آسيا<sup>(2)</sup>.

---

(1) - بوذا (بدها غوتاما) : حوالي 566 - 486 ق . م، مؤسس الدين.

البوذية.

(2) - تاريخ الحضارة، لجورج حداد.

### المزدكية<sup>(1)</sup> :

لم يكن لها اعتبار قبل (قباذ)، فهذا الملك الفارسي تبنى هذه العقيدة، وحاول فرضها جبراً على شعبه كله، وحتى المناذرة العرب التابعين له في العراق<sup>(2)</sup>، وبينوا سلطان قباذ ضعف شأن المزدكية.

### الزرادشتية<sup>(3)</sup> :

لم تنتشر قبل (دارا) كسرى الفرس، الذي نشرها حرباً بعد قرن من وفاة زرادشت، حتى وصل بها أثينية عاصمة اليونانيين القدماء.

### الكونفوشيوسية<sup>(4)</sup> :

ما انتشرت تعاليمه إلا لاستخدام صاحبها لمركزه رئيساً للوزراء في مقاطعة (لو) الصينية.

(1) - مزدك، داعي فارسي، أراد شيع الأموال والنساء.

(2) - تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الخضري، والمحل والنحل 2 / 88.

(3) - زرادشت (ت حوالي 583 ق.م) أصله من أذربيجان.

(4) - كونفوشيوس: [551 - 478 ق.م]، اسمه في الصين Kung Fu Tzu.

### المسيحية :

أولاًً وقبل كلّ شيء:

ليست المسيحية التي أنزلها الله على نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام، هي التي شرعت للنصارى في العصور الأولى والوسطى تعاليم همجية متعطشة إلى سفك الدماء، وإهلاك الناس.

ومسيحيّة لم تكن لتنتشر لو لا سلطة قسطنطين الذي أراد أن يكون سيداً، فاستغلَّ الخلافات الداخليّة للكنيسة، وأصدر مرسوم ميلانو سنة 313 م، الذي اعترف بموجبه بالمسيحية، وأهال عليها أعطياته.

### ثانياً :

«ظلّ شارلمان يحارب السكسونيين ثلاثة وثلاثين سنة، كلها عنف ووحشية، حتى أخضعهم وحوّلهم قسراً إلى الديانة المسيحية، كما تطلب ثمانية رحلات حسوماً متتابعة، حتى هزم الأفاريّين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكّدة إنّها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة، إلى شاهق الفيض والوفرة<sup>(1)</sup>.»

---

(1) - تاريخ أوربة العصور الوسطى، فيشر : 1 / 61.

«فرض شارلمان على السكسونيّين الوثنيّين النّصرانيّة بالسيف،  
ولَا ضعف السكسونيّين بعد معارك كثيرة وحروب عديدة،  
اعتنقوا المسيحيّة آخر الأمر، وخضعوا لحكم الفرنجة.

وكان فرض هذا الدين على السكسونيّين على يد القديس  
ليودجر Willehad وويليهاد <sup>(1)</sup>.

«ولقد أكرهت مصر على انتقال النّصرانيّة، ولكنها هبطت  
بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح  
العربي <sup>(2)</sup>.».

وفي الدنمارك: نشر الملك (كنوت Cnut) المسيحيّة في  
ممتلكاته بالقوة والإرهاب.

«ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها للقانون  
المسيحي بعد أن اشتباك مع الملك المتبربرة في حروب طاحنة  
مدفعياً بما كان يضطرم في نفسه من الشُّوق إلى نشر  
العقيدة <sup>(3)</sup>.».

---

Monumenta Germaniac Historica G.H Pexlr - (1)

(2) - حضارة العرب، ص : 336.

(3) - الدُّعوة إلى الإسلام، ص : 30.

### وفي روسية :

نُشِّرت الدُّعْوة المُسِيَّحِيَّة على يد جماعة اسمها - تمعنْ  
باسمها - :

«إخوان السيف»<sup>(1)</sup> . Bretheren of The Sword

«أَمَا كَيْفَ كَانَ دُخُولُ الْمُسِيَّحِيَّة رُوْسِيَّة، فَيَبْدُو أَوْلَأَ أَنَّهُ تَمَّ  
عَلَى يَدِ فَلَادِيمِير دُوقِ كَيْف [985 - 1015 م]، وَهُوَ سَلِيلُ رُورُك،  
وَيُضَرِّبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْوَحْشِيَّةِ وَالشَّهْوَانِيَّةِ، إِذَا جَاءَ إِلَى الدُّوْقِيَّةِ  
فَوْقَ جُلُّهُ أَخْرِ إِخْوَتِهِ، وَاقْتَنَى مِنَ النَّسْوَةِ ثَلَاثَةَ أَلْفَ وَخَمْسَ  
مِائَةَ<sup>(2)</sup>، عَلَى أَنَّهُ هَذَا وَذَاكُ كُلُّهُ، لَمْ يَمْنَعْ مِنْ تَسْجِيلِهِ قَدِيسًا فِي  
عَدَادِ الْقَدِيسِينَ بِالْكَنِيْسَةِ الْأَرْثُوذُوكْسِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ، لَأَنَّهُ الرَّجُلُ  
الَّذِي جَعَلَ مِنْ كَيْفَ مَدِينَةً مُسِيَّحِيَّةً، وَجَعَلَ مِنَ الرُّوسِيِّينَ شَعْبًا  
عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ (زَعِيمٌ بِغَفْرَانِ ذَنْبِهِ)، وَقَدْ أَمَرَ فَلَادِيمِيرَ بِتَعْمِيدِ  
أَهْلِ دُوْقِيَّةِ رُوْسِيَّةِ كُلِّهِمْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي مِيَاهِ نَهْرِ الدَّنِيبِ<sup>(3)</sup> .»

---

(1) - الدُّعْوةِ إِلَى الإِسْلَامِ، ص 31.

(2) - فِي (Camb, Med. Hist, iv P.208) حِيثُ وَرِدَ أَنَّ عَدَدَ أُولَئِكَ  
النَّسْوَةِ الَّتِي اخْتَارَهُنَّ فَلَادِيمِيرَ لِنَفْسِهِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى خَمْسَ زَوْجَاتِ شَرِيعَاتِ، لَمْ  
يَكُنْ سَوْيَ ثَلَاثَ مِائَةٍ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الاعْتِدَالِ.

(3) - تَارِيخُ أُورَوْبَةِ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَىِ، ص : 407.

### وفي النُّرُوج :

قام الملك (أولاف ترايجفيسون) بذبح هؤلاء الذين أتوا  
الدُّخُول في المسيحية، أو بقطع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم  
وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر المسيحية في (فيكن) القسم  
الجنوبي من النُّرُوج بأسرها<sup>(1)</sup>.

وجاء في كتاب (صلاح الدين الأيوبي) قصة الصراع بين  
الشَّرق والغرب خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، لقديري  
قلعجي مايللي:

«سَمِّل باسيليوس الثاني ناشر المسيحية في روسية أعينَ  
(15 ألف) من أسرى البلغار، إِلَّا مئة وخمسين منهم، أبْقى لـكُلّ  
واحد منهم عيناً واحدة ليقودوا إِخوانهم في عودتهم لبلادهم.

### وفي أمريكا :

إِبادة للهنود الحُمر، وهذا كان أيضاً نصيب حضارة  
الأَنْتِيل، وحضارة المايا، وحضارة الأَزْتِيك، وحضارة الأنكا في  
بيرو.

---

(1) - الدُّعْوة إِلَى الإِسْلَام، ص: 32.

وهناك مثالٌ حيٌّ على ما رافق الكشوفات الجغرافية  
الأوربية :

نشرت صحفة الحياة (البيروتية) صورة لما رافق  
استكشاف جزيرة (هايتي) على يد الإسبان، كانت المادّة  
العلمية تحتها مايلي:

«وانشغل خبّاطه وخلفاؤه أَوْلَ الأمر - خلفاء المستكشف  
قائد الحملة - باستكشاف جزيرة هايتي (إسبانيولا) واحتلالها،  
وكانت ماتزال في داخلها أرض شاسعة مجهولة، وقد تولّى هذه  
المهمة كُلُّ من ديبيغو فلاسكيز ويانفيلو دونارفين، فأبديا من  
ضروب الوحشية مالم يسبق له مثيل، متفتنين في تعذيب سكان  
الجزيرة بقطع أناملهم، وفقء عيونهم، وصبّ الزيت المغلي،  
والرصاص المذاب في جراحهم، أو بإحراقهم أحياً على مرأى  
من الأسرى، ليعرفوا بمخابئ الذهب، أو ليهتدوا إلى الدين.

وقد حاول أحد الرهبان اقناع الزعيم (هانيهاري) باعتناق  
الدين، وكان مربوطاً إلى المحرق، فقال له إنّه إذا تعمد يذهب  
إلى الجنة، فسائل الزعيم الهندي: وهل في الجنة إسبانيون؟  
فأجابه الراهب: طبعاً، ماداموا يعبّون إله الحق !

فما كان من الزعيم الهندي إلا أن قال: إذا، أنا لا أريد  
أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأمة المتوجهة<sup>(١)</sup>.

ليس هذا بعلم لنا فقط، بل نشرت Cuba Internacional تحت عنوان LA HISTORIY ، ص: 6 صورة Joulio 1972 لمبشر بيده صليب، وزعيم مقيد إلى سارية، وقد غطى حتى متصفه بحزم الحطب والقش لحرقه، أما المبشر فرافع الصليب في وجهه يدعوه إلى المسيحية قبل موته.

---

(1) - الحياة : العدد 2494، الأربعاء 23 حزيران (يونيو)، الصيف 1954.

## محاكم التفتيش<sup>(1)</sup>:

### *The Inquisition*

بدأت بمصرع غرناطة<sup>(2)</sup> مرحلة مؤلمة مؤسفة لشعب مسلم مغلوب، وعدوا خائن نقض شروط المعاهدة التي وقعت في 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1491م، بين أبي عبد الله الصغير<sup>(3)</sup> وفرديناند<sup>(4)</sup>، والتي اشترط المسلمون أن يوافق البابا على الالتزام والوفاء بالشروط، إذا مكروا النصارى من غرناطة والعاقل والحسون، ويقسم على ذلك، على عادة النصارى في العهود.

---

(1) - محاكم التفتيش (أو محاكم التحقيق)، شُكِّلت في إسبانيا بمرسوم بابوي في تشرين الثاني (نوفمبر)، التمور سنة 1478م.

(2) - في 2 كانون الثاني (يناير)، أي النار سنة 1492م.

(3) - آخر ملوك غرناطة.

(4) - فرديناند ملك أراغون وقشتالة، زوج إيزابيلا (1469م).

### ومما جاء في معاهدة تسليم غرناطة:

«.. تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم<sup>(1)</sup> وعقارهم، وإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت، والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبو أحداً .. وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يُقْهَرَ من أسلم على الرجوع للنصارى ودينه .. ولا ينظر نصراني على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسيير في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله .. ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه .. وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويوضع خطًّا يده<sup>(2)</sup>».

ومع قَسْمَ فرديناند وإيزابيلا الرسمي بالله، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاؤوا وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن الأيمان والعقود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار

(1) - الربع : المنزل والدار بعينها، والوطن متى كان، وبائي مكان كان، وجمعه أربع رباع رباع وأربع [اللسان: رباع].

(2) - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . 6 / 277 - 278.

للخيانة والغدر، وأن هذه الشُروط الخلابة نقضت جميعاً بعد تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي (بروسكوت Prescott) أن يصفها بأنها أفضل مادةً لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور<sup>(1)</sup>.

لقد نقض الإسبان شروط المعاهدة بندأً بندأً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء المسلمين الموجدين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردنجال (أكريميسيس) على ذلك، فأمر بجمع كلٍ ما يسعه من الكتب العربية، ونظمت أكاداساً في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإنساني، وأحرقها.

يقول غوستاف لوبيون متحسراً على فعلة الكردنجال (أكريميسيس):

«ظنَّ رئيس الأساقفة الإسباني (أكريميسيس) أنه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب، أي ثمانين ألف كتاب، مما ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، مما درى أن ماتركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانيا يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد<sup>(2)</sup>.»

(1) - مصرع غرناطة، ص : 85.

(2) - حضارة العرب، ص . 339.

ولقد هدفت محاكم التفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشدّ وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للMuslimين لتحول دون النزعة الصليبية، التي اسبغت على سياسة إسبانية الغادرة ثوب الدين والورع.

ولما قاوم المسلمون التنصير وأبواه، عدوا ثواراً متصلين بالغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم، فثاروا في غرناطة وريفها<sup>(1)</sup>، فمرّقوا بلا رأفة، وفي 20 تموز (يوليو) 1501م، أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته:

«إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة(!) فإنه يحظر وجود المسلمين فيها .. ويُعاقب المخالفون بالموت، أو مصادرة الأموال<sup>(2)</sup>».»

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه، وأظهر تنصره فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المرهون، فحين التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يُرجم به في السجن، وكانت السجون رهيبة، عميقة، مظلمة، رطبة، تغص بالحشرات والجرذان ... ويُصَدَّ فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتُدفع نفقات سجنهم.

(1) - كالبيازين والبشرات.

(2) - مصرع غرناطة، ص 99

ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه، ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية.

وسحق العظام بالآلات ضاغطة.

تمزيق الأرجل، وفسخ الفك ...

ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده، أو جف دمه<sup>(1)</sup>.

وقرار المحكمة لا يتم إلا حين التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملوك الكاثوليكين حفلات الإحراب.

---

(1) - ومن أنواع التعذيب : الدفن على قيد الحياة، انظر فصل : (طرق التعذيب في محاكم التفتيش) ص . 91، من كتاب : (محاكم التفتيش).

وهذه صورة من محاكمات التَّفْتِيش<sup>(1)</sup> :

قُبِضَ عَلَى مُسْلِمٍ وُسِقِّطَ إِلَى الْمَحَاكِمَةِ، وَكَانَ ثَبَاتُ ذَلِكَ الرَّجُلِ أَمَامَ هَيَّةِ الْمَحْكَمَةِ، مَا دَعَا إِلَى زِيَادَةِ حَفِيظَتِهِ عَلَيْهِ، وَالْمِبَالَغَةِ فِي تَعْذِيبِهِ.

جَيْءَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ، فَقَالَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ لِجُنُودِ التَّفْتِيشِ: ضَعُوا الْحَدِيدَ فِي أَصَابِعِهِ الْآنَ وَقَدِّمُوهُ إِلَيْنَا، فَفَعَلُوا، ثُمَّ جَيْءَ بِذَلِكَ الْمُسْكِينِ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ وَقَدْ أَعْيَاهُ الْأَلْمُ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَقَالَ الرَّئِيسُ: أَوْقِفُوهُ، فَأَجَابَ أَحَدُ الْحَرَاسِ: إِنَّهُ لَا يَقْوِيُ عَلَى الْوَقْوفِ، فَقَالَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ: إِذَا فَضَعُوهُ فِي التَّابُوتِ فَإِنَّهُ يَقْفِي فِيهِ.

فَوَضَعُوهُ فِي التَّابُوتِ، وَهُوَ صَنْدُوقٌ مَرْبَعٌ فِيهِ مَسَامِيرٌ مِنَ الدَّاخِلِ، فَاضْطُرَّ الْمَعْذُوبُ أَنْ يَقْفِي رَغْمًا مَا بِهِ مِنْ إِعْيَاءٍ وَضَعْفٍ ثُمَّ رَفَعُوا الْكَمَامَةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى فَمِهِ لِيُتَمَكَّنَ مِنَ الإِجَابَةِ عَلَى الْأَسْئَلَةِ، وَتَنَفَّسَ الْمُسْكِينُ الصُّعْدَاءَ طَوِيلًا، أَمْرَ الرَّئِيسِ بِأَنْ يَسْقُوهُ قَلِيلًا مِنَ الْخَمْرِ، فَلَمَّا شَرَبَ قَلِيلًا مِنْهَا تَفَتَّحَ عَيْنَاهُ، وَحَدَثَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَنْتَعَاشِ، وَفَحَصَهُ الطَّبِيبُ حَتَّى عَلِمَ أَنَّهُ

---

(1) - عن كتاب (محاكم التَّفْتِيش)، د. علي مظهر، طبعة 1947، ص . 82، تحت عنوان : (محاكمة مسلم من بقايا المسلمين، وكيفية استجوابه أمام محكمة التَّفْتِيش).

قادر على الوقوف والاستجواب، فتأبلغ ذلك هيئة المحكمة، فوجهه  
إليه الرئيس الأسئلة الآتية:

قال الرئيس: ما اسمك؟ فأجاب: أنا مسلم عربي.

الرئيس: كلا، بل اذكر اسمك المسيحي الجديد، فأجاب:  
صموئيل فرناندوس.

الرئيس: قل صدقًا: كم عمرك؟ فأجاب: ثلاثة وثلاثين  
سنة مثل عمر المسيح.

الرئيس: إذاً أنت مستعد للتضحية؟ فأجاب: بإذن الله.

الرئيس: أتقبل ذلك وأنت راضٍ؟ فأجاب: نعم.

الرئيس: إذاً قل: من هو إلهك؟ فأجاب: هو إلهكم  
نفسه.

الرئيس: وما اسمه؟ فأجاب المسلم: الله في سماء  
ملكته.

الرئيس: بل قل معي: يسوع المسيح، فأجاب وهو يردد:  
يسوع المسيح.

الرئيس: يظهر عليك أنك تأثرت من ذكر هذا الاسم أليس  
كذلك؟

قال الرجل مجيباً: أجل.

الرئيس : وما نوع ذلك التأثير ؟ فأجاب : تأثير داخلي.

الرئيس : وماذا قال لك هذا الصوت الداخلي.

الرجل : لا أدرى، فإني الآن لا أردي ما أقول.

الرئيس : قل ما فكرت فيه بصوت مسموع.

الرجل : لا أقدر على الكلام، لأنني متآلم جداً من الضغط على صدري، والكلام لا يكون حسب الأمر، بل حسب الاستطاعة.

الرئيس : ستنظر بذلك جيداً جداً.

ونظر الكاتب إلى الرئيس مستفهماً، فقال الرئيس : أظن أنَّ ضرب وجهه بالسوط يُمْكِنُه من الكلام.

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب، وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء، فاحمرَّ جلد وجهه، وكاد يخرج منه الدَّم، وجعل يتلوى من الألم، فقال له كاهن : تعال يا صموئيل، تقدَّم واعترف أمامي بكلٍّ خططيتك، وقل لي: بماذا تفكَّر الآن ؟ قل الحقَّ قبلما يحلُّ بك القصاص، تقدَّم يابني، الحقُّ بيديك يا محمد، لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحية، فلماذا سُمِيت صموئيل، ولم تختار اسم قدِيس مسيحي كبطرس أو بولص ؟ ثمَّ نظر إلى الكاتب وقال اكتب : أين ولدت ؟ فأجاب: في طنجة.

الكاهن : أَإِسْبَانِي أَنْتُ ؟ فَأَجَابَ : كُنْتُ إِسْبَانِيًّا.

الكاهن : وَلَاذَا تَقُولُ كُنْتُ ؟ فَأَجَابَ : أَقُولُ هَذَا لِأَنِّي  
لَسْتُ بِإِسْبَانِي لِكِي أَظْلِلَ إِسْبَانِيًّا إِلَى الْأَبْدِ.

الكاهن : وَأَبُوكَ ؟ فَأَجَابَ : لِيَسْ لِي أَبٌ، فَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ.

الكاهن : وَأَمْثُكَ ؟ فَأَجَابَ : مَاتَتْ أَيْضًا.

الكاهن : وَأَينَ مَاتَتَا ؟ فَأَجَابَ : فِي سُجُونِ دِيَوَانِ التَّفْتِيشِ.

الكاهن : أَحْرَقَاهُمَا ؟ فَأَجَابَ : كَلَّا بَلْ تَعْذِيبًا حَتَّى تَهَرَّأَتْ  
أَجْسَادَهُمَا، فَمَا تَأْتِي شِدَّةُ العَذَابِ.

الكاهن : وَبِمَاذَا اتَّهَمَاهُمَا ؟ فَأَجَابَ : لَقَدْ كَانَا بَرِيئَيْنِ.

الكاهن : هَلْ لَكَ إِخْرَوَةٌ ؟ فَأَجَابَ : أَظْنَنُ ذَلِكَ.

الكاهن : كَيْفَ تَظَنُّ ؟ أَيْنَ إِخْرَوَتَكَ ؟ وَأَيْنَ يَقِيمُونَ ؟

الرَّجُلُ : بَلْ قَلْ أَوْلًا : أَيْنَ مَاتُوا ؟ وَأَيْنَ قُبُورُهُمْ ؟

الكاهن : يَظْهِرُ أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ يَنْفَدِ صَبَرَنَا مَعَكُ، فَسَنَبْدِأُ  
بِتَعْذِيبِكَ.

الرَّجُلُ : يَسُوءُنِي هَذَا.

الكاهن : إِذَا أَنْتَ لَا تَرِيدُ أَنْ تَدْلِنَا عَلَى الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَّةِ مِنْ  
إِخْرَوَتَكَ، وَلَا عَنْ مَكَانِ إِقَامَتِهِمْ ! إِنَّ الدِّيَوَانَ الْمَقْدُسَ لَا يَخْفِي عَلَيْهِ

أن لك إخوة هم على قيد الحياة، وهم يصلُّون في مساجد خفية،  
الاتعلم أين هم ؟ !  
الرجل : لا أعلم.

الكافن : لما صدر الأمر بسجنهما هربوا، أفلأ تعلم إلى  
أين ؟ الرجل : كلاً.

الكافن : تذكَّر جيِّداً علَّك تعلم.

الرجل : كيف يمكنني أن أتذكَّر وأنا مضطرب الفكر  
ضائع العقل ؟

الكافن : يجب أن تساعدنَا على معرفة مقرِّهم حتى  
نخلص نفوسهم.

الرجل : على غرار ماتفعلون معى الآن.

الكافن : أنت تسكن مع امرأة، فمن تكون هذه ؟ فأجاب:  
ندجي.

الكافن : كيف يمكنك ادعاء هذا ؟

الرجل : هل تريده أن يكون الأمر كذلك ؟

الكافن : علمنا أنها مسيحية، وأنك بهذا العمل تخالف  
آداب ديننا المسيحي، وتتبذل العفاف، فيجب عليك أن تسلم زوجك  
للديوان المقدّس.

الرجل : هل هذا هو العفاف والدين عندكم ؟

الكافر : نحن لانجادلك بل نأمرك.

الرجل : إذا كنتم تأمرونني، فأولى بكم أن تقتلوني، وهذا كلُّ ما يمكن أن تفعلوه، وعندئذ سوف تصلي زوجتي من أجلي.

الكافر : ويلك ياشقي، لاتزال مُصِراً على إنكارك ؟ اصلاح هفواتك وخطاك يا هذا، وإنْ فاِنْك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً، والآن فلنتم أعمالنا، أين إخوتك ؟ وأين زوجك ؟.

الرجل : هم في مكان أمن.

الكافر : ألا ت يريد أن تعرف بأكثر من هذا ؟

الرجل : إنني أعترف إلى الله خالقي فحسب، أنت تعذبونني والله يعلم إنني بريء.

الكافر : سوف تساق إلى التعذيب الآن، فالآن لك الإقرار.

الرجل : لا يهمني العذاب، فإن جسمي مخدر ولا يشعر.

الكافر : إذا لم تُجِب على ماسألك الآن، فسوف تُسقَى الماء رغم أنفك، يدفع إليك من حلقك حتى يقضى عليك.

الرجل : لقد احترقت رجلاً أولاً بناركم، فلم أمت حتى الآن.

فقال أحد القُسُّس، وهو يتصنّع الرقة والعطف عليه،  
بصوت متكلّف:

اعلم يابني أَنَّا لانرمي من وراء تعذيبك إِلَى الإقرار عن  
بقية أهلك الذين تحبهم، وبذا تُتّجِي نفسك ونفوسهم، ونصل بكم  
إِلَى السَّماء.

فأجاب الرجل : إِذا صعدنا نحن إِلَى السَّماء، فمن يهوي  
بكم إِلَى الجحيم ويئس القرار؟

وعندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إِلى  
المعذّبين المرتدّين الثياب السُّود، الواقفين أمام آلات التعذيب،  
فهجموا عليه، وأخذّ بعضهم يضع الحال في يديه وصدره معاً،  
ويلفُها لفّاً، وأخرون ربّطوا رجليه بحبيل دقيق، ثمّ وضعوه على  
مائدة خاصة، وأعادوا ربطة عليها ربطةً وثيقاً، وتقدّم أحد هؤلاء  
المعذّبين وهو يحمل جرة ملأى بالماء، وتقدّم آخر وفي يده قمع،  
فقال الكاهن الموكّل بعظة الخاطئين والصلة لأجلهم:

والآن يا صموئيل، لماذا تضطرنا يابني إِلى تعذيبك،  
وإحداث هذه الآلام لك، مادمت قادرًا على الخلاص من هذا  
كله، إِذا ما قلت لنا أين إخوتك؟ وأين زوجك؟

فأجاب الرجل : لا يمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم، لأنني قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم ولا أسلّمهم لديوان التفتیش .

فقال الكاهن : ولكننا لانعتقد أنهم يرضون لك هذه الحال، وهذا العذاب الأليم .. إن هذا السُّكوت لا يُعدُّ أمانة الآن، بل يُعدُّ جنوناً .. قل قبل أن يبدأ الرجال بتعذيبك.

الرجل : إِنَّمَا أَشْكُرُ لَكُمْ إِذَا مَا قَاتَلْتُمُونِي مَرَّةً وَاحِدَةً.

الكافر : دع عنك هذا العناد يا رجل، واعلم جيداً أنك سوف تموت دون أن يعلموا بذلك مت فداء لهم، والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً، وإن آجلاً، فتكون قد مُتَّ أنت من غير ما فائدة، ومع هذا فإن زوجك هذه سوف تنساك لامحالة وتتزوج سواك، وربما تكون قد خانتك الآن، فصاح الرجل قائلاً: صه أيها النذل الحقير، واعلم جيداً أن عذابكم لجسدي لا يعنيوني قدر تعذيبكم بكلامكم هذا الذي تلفظه ألسنتكم القذرة السامة ! وبكي الرجل، وبدروا بتعذيبه، فكان صراخه يملأ القاعة، ولكن ليس من منقد، بيد أن القُسُس كانوا وقوفاً يصلّون، وبايديهم كتبهم يرثّلون منها الأناشيد المسيحية.

وبينما هم يعذبون المسكين على هذه الصورة، سبقت سيدة أمام المحكمة، وكانت رابطة الجأش، ذات شجاعة مدهشة، ونظر إليها رئيس المحكمة بنظرات حادة، كلُّها الحقد والغضب والانتقام، وسأله قائلًا:

- ما اسمك يا هذه؟

- سوزانا فرناندوس.

وسمع زوجها المعذب ذلك، فأنْ أَنِينًا طويلاً محزناً، فقد عرف أنَّهم قبضوا على زوجه المسكينة، وأنَّها وقعت بين براثن أولئك الوحش العتاة، أمَّا هي فلم تتمكن من معرفة مَنْ يُعذب لِمَا استولى على القاعة من ظلام، ولكنها حينما سمعت الأنين التفتت لترى من يئن، ولما أخذ رئيس المحكمة في استجوابها وعيناه تتقدان شرراً، ومنها ينبعث الشرر لالتفاتها، واستمر يسألهما قائلًا:

- بنت منْ أنتِ؟ فأجابت: لا أعلم.

- ألا تعلمين منْ هما أبواكِ؟ فأجابت: كلا إنِّي رأيت ذات مرأة رجلاً ماراً بحري (تريليانا)، فقالوا لي: إنَّ هذا أبي.

- وهذا كلُّ شيء؟ فأجابت: نعم.

- وأمك من تكون ؟ فأجابت : هي أمي.

- وأين هي ؟ فأجابت : ماتت.

- وأين ماتت ؟ هل سقطت في الوادي الكبير ؟

- كلا، بل قُتلت قتل العمد.

- وكيف كان هذا ؟

- إنها ماتت جوعاً في سجون ديوان التفتیش.

- وأين كانت تسكن قبل أن تسجن ؟

- مع رجل من بقایا العرب، كان يمر ببابنا كل يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد، فسكن، وسانضم أنا لهما أيضاً.

- وهل مات ذلك الرجل ؟

- نعم قد مات في سجون ديوان التفتیش .

- أكان مسيحيّاً ؟.

- لا أدرى، ومع هذا فلِمْ تسائلونني عن المسيحية كثيراً ؟  
وما دخل الديانة المسيحية في ديوان التفتیش ؟ ! ! !

وَمَا كَادَتِ السَّيْدَةُ تُتِيمُ كَلَامَهَا حَتَّىٰ بَدَأَ رَجَالُ العَذَابِ فِي  
تَعْذِيبِهَا تَعْذِيبًا مُخِيفًا تَقْشُّرُ مِنْ ذَكْرِهِ الْأَبْدَانِ.

وَمِمَّا يُذَكِّرُ ... أَنَّ هُنَاكَ عَذَابًا اخْتَصَّ بِهِ النِّسَاءِ، وَهُوَ:  
تَعْرِيَةُ الْمَرْأَةِ إِلَّا مَا سِرَّ عُورَتِهَا، وَكَانُوا يَأْخُذُونَهَا إِلَى مَقْبَرَةٍ  
مَهْجُورَةٍ، وَيَجْلِسُونَهَا عَلَى قَبْرٍ مِنَ الْقُبُورِ، وَيَضْعُونَ رَأْسَهَا بَيْنَ  
رَكْبَتَيْهَا وَيَشْدُونَ وَثَاقَهَا، وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ السَّيِّئَةِ، وَلَا  
يُمْكِنُهَا الْحِرَّاكُ، وَكَانُوا يَرِيظُونَهَا إِلَى الْقَبْرِ بِسَلَسلَ حَدِيدِيَّةٍ،  
وَيَرْخُونَ شَعْرَهَا فِي جَلَلِهَا وَتَظَهُرُ لِمَنْ يَرَاهَا عَنْ كُتُبٍ كَائِنَةٍ مِنْهَا  
جِنِّيَّةٌ وَلَا سِيمَا إِذَا مَا أَرْخَى اللَّيلَ سَدُولَهُ، وَتَتَرَكُ الْمُسْكِنَةُ عَلَى  
هَذِهِ الْحَالِ إِلَى أَنْ تَجُنَّ، أَوْ تَمُوتَ جَوْعًا وَرَعْبًا<sup>(1)</sup>.

وَيَوْمَ احْتِلَالِ نَابُليُونَ بُونَابِرتِ لِإِسْبَانِيَّةِ، بَعْدَ قِيَامِ الثُّورَةِ  
الْفَرْنَسِيَّةِ، أَصْدَرَ مَرْسُومًا سَنَةً 1808 م بِإِلْغَاءِ مَحاكمِ التَّفْتِيشِ  
فِي إِسْبَانِيَّةِ، وَلَكِنَّ رَهْبَانَ (الْجَزُوِيَّاتِ) أَصْحَابَ الْمَحَاكمِ الْمُلْفَاهِ،  
اسْتَمْرُوا فِي الْقَتْلِ وَالتَّعْذِيبِ، فَشَمِلَ ذَلِكَ الْجُنُودُ الْفَرْنَسِيُّونَ  
فَأَرْسَلَ الْمَرِيشَالُ (سُولَتْ) الْحَاكِمُ الْعَسْكَرِيُّ الْفَرْنَسِيُّ لِمَدْرِيدِ،  
الْكُولُونِيَّلُ (لِيمُونِكِيُّ) مَعَ أَلْفَ جُنْديٍ وَأَرْبَعَةَ مَدَافِعٍ، وَهَاجَمَ دِيرَ  
الْدِيُوَانَ، وَبَعْدَ احْتِلَالِ الدِّيرِ وَتَفْتِيشِهِ عَنْوَةً، لَمْ يَعْثِرُوا عَلَى شَيْءٍ،

---

(1) - مَحاكمُ التَّفْتِيشِ. ص: 93.

فقرر الكولونيل (ليمونكي) فحص الأرض، وحين ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة.

أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا، فإذا الماء يتسرّب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا، يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وُضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس، وفتح الباب بقحوف البنادق، وأصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة، وظهر سُلْمٌ يؤدي إلى باطن الأرض.

ونزل القائد الكولونيل وجندُه، ويدرك هذا الإنسان في مذكرياته مايلي<sup>(1)</sup>:

إذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، هي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة رُبِطَت بها سلاسل؛ كانت الفرائس تُقيَّد بها رهن المحاكمة.

وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) كما يسمونه، وهو عبارة عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس ديوان محكمة التفتيش، وإلى جانبه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة.

---

(1) - راجع (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) دحض شبكات ورد مفتريات، للأستاذ محمد الغزالي، ط3، سنة 1965م، ص : 316.

ئم توجهنا إلى آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية، وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض، وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التفرّز ماحيٍّ.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي، وبعضها أفقي ، فيبقى سجين العمودية واقفاً بها على رجلية مدة سجنه حتى يقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممدداً بها حتى يموت، وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلٍ، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الرؤائح الكريهة المبعثة من الأحداث البالية، تُفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدّة هياكل بشرية، مازالت في أغلالها سجينـة.

والسُّجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السُّجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جن لكترة مالاقى من عذاب، وكان السُّجناء عراة زيادة في النكارة بهم، حتى اضطر جنونـنا أن يخلعوا أرديـتهم، ويستروا بها لفيـاً من النساء السـجينـات ..

وانتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا هناك ماتقشعر لهجة  
الأبدان، عثروا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم.

وعثروا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً،  
يوضع فيه الرأس المُعذَّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلسل في  
يديه ورجليه، فلا يقوى على الحركة، وتقطر على رأسه من ثقب  
في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في  
كل دقيقة نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة  
نقطة، وقد جنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن  
يحملوا به على الاعتراف، ويُبقي المُعذَّب على حالة تلك حتى  
يموت .

وعثروا على آلية ثلاثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي  
عبارة عن تابوت تمام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة  
الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة  
سكاكين حادة، وكانوا يطربون الشاب المُعذَّب فوق هذه  
الصورة، ثم يطبّقون عليه باب التأبُوت بسِكاكينه وخناجره، فإذا  
أغلق، منق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثروا على جملة آلات لِسَلِ اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعذَّبين، وهم عراة، حتى يتناثر اللحم عن العظام.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنْ جنونهم وانطلقوا - كمن به مسٌّ - فامسکوا برئيْس الدَّير ووضعوه في آلة تكسير العظام، فدققت عظامه دقاً، وسحقتها سحقاً، وأمسکوا أمين سرِّه، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليها الأبواب، فمزقته السُّكاكين شرًّا ممِّزق، ثمَّ أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك.

إن مقارنة بسيطة بين الفتح العربي الإسلامي للبلاد المسيحية، والاحتلال المسيحي للبلاد الإسلامية، تعطي فكرة واضحة جلية عن تسامح المسلمين وحرىَّة المعتقد تحت سلطانهم، وتعطي في الوقت ذاته صورة جلية لتعصب المسيحيين والقمع والمجازر والتحرير الذي رافق انتصاراتهم، سواء في الحروب الصليبية في المشرق، أو في حروبهم الصليبية في إسبانيا.

فالمسلم لم تجش في نفسه نوايا الغدر والفتوك والخيانة، والقتل الجماعي والتُّحرير لغير أبناء دينه، وقد حكم قروناً طويلة، ولم نسمع عنه، ولومرة واحدة، بمثل ماجرى فيمحاكم التفتيش.

لقد حفظت مبادئ الإسلام لغير المسلم حقوقه، وعرفته بواجباته التي لا تختلف كثيراً عن واجبات المسلمين، وفي كل الظروف عُولِّمَ غير المسلم (إنساناً) تُحترم إنسانيته:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًاٰ وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتُقَاتَّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِهِمْ ﴾

(الحجّرات : 49 / 13)

و«الخلق كُلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إلى الله انفعُهم لعياله».

ولما صار زمام القوة والحكم بيد النصارى الإسبان، استُؤصلُّ المسلمون وأُبْيدوا وحرقوا وهجروا ... ومع هذا كلُّه يُتَّهِمُ الإسلام بالقسوة والتعصب، وانتشاره بالسيف، ويُوصَفُ المسيحيون بالتسامح والمحبة والكلمة الطيبة، فـأَيُّ ظلم يصيِّبُ الإسلام حين يُكتَبُ تارِيخه في أوربة ؟ ؟ ؟

أَلْمَ نَقْلُ : إِنَّ مَا يَفْعَلُهُ الْمُسْتَشْرِقُونَ بِالْإِسْلَامِ يَسْمُى  
«إِسْقاطًا» أَلَا وَهُوَ اتْهَامُ الْآخَرِينَ بِمَا فِيهِمْ مِنْ سُوءٍ وَنَقْصٍ  
وَوَحْشَيَّةٍ وَتَعَصُّبٍ !!

## الكشفُ الجغرافيةُ

أَقْلَع يُوحَنَا الْأَوْلُ، مَلِكُ البرْتُغَالِ<sup>(1)</sup>، بِمِئَتَيْنِ وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعينَ سَفِينَةً يَقُودُهَا، مِنْ مِينَاءِ لَشْبُونَهُ، بِهَدْفِ تَحْقِيقِ أَوْلَ هَجْوَمٍ توْسِعِي بِرْتُغَالِيٍّ، مَعَ اسْتِمْرَارِيَّةِ حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ أَيْنَمَا وُجُدُوا، فَاتَّجَهَ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَنَحْوِ سَبِيَّةِ الْبَذَّاتِ لِأَنَّهَا الْمَرْسِيُّ الَّذِي لَا يَزَالُ تَقْلُعَ مِنْهُ قَوْاَتُ الْمَدِ الَّذِي كَانَ الْمَغْرِبُ يَوْجِهُهَا لِإِعْانَةِ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ الْمَرَابِطِينَ وَالْمُوْهَدِينَ وَبَنِي مِرِينَ<sup>(2)</sup>

(1) - يُوحَنَا الْأَوْلُ Joan I أَوْلُ مُلُوكِ البرْتُغَالِ مِنْ أَسْرَةِ (أَبِيس) سَنَةَ 1385 مَ، وَالَّذِي تَمَّ فِي عَهْدِهِ الْكَشْفُ الْجُغْرَافِيُّ الْأَوْلَى.

(2) - يَذَكُّرُ مُحَمَّدُ القَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَنْصَارِيِّ السُّبْتِيُّ فِي كِتَابِهِ (اخْتِصارُ الْأَخْبَارِ) كَانَ بِثَغْرِ سَبِيَّةِ مِنْ سَنِيِّ الْأَثَارِ)، صَ : 27 - 33 : أَنَّهُ كَانَ بِسَبِيَّةِ أَلْفِ مَسْجِدٍ، وَأَنَّ عَدْدَ الْخَزَائِنِ الْعُلُمِيَّةِ (الْمَكَتَبَاتِ) بِهَا اثْنَتَانِ وَسَوْتُونَ خَزَانَةً، وَأَنَّ عَدْدَ الرَّوَابِطِ الْزَّوَابِيَا سَبْعَ وَأَرْبَعُونَ مَابِينَ زَاوِيَةً وَرَابِطَةً، أَمَّا مَحَارِسُ الْمَدِينَةِ فَعَدَدُهَا ثَمَانِيَّةُ شَرْحَرَسًا، تَمَتدُّ إِلَى اثْنَتِيْنِ عَشَرَ مِيلًا مِنْ خَارِجِهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ ... وَكَانَ بِسَبِيَّةِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ حَمَاماً، وَمِنْتَهَا أَرْبِيعَةُ وَسَبْعُونَ سَوقًا، أَمَّا الْمَنْجَرَاتُ الْمُعَدَّةُ لِعَمَلِ الْقَسْرِ فَعَدَدُهَا أَرْبِيعُونَ مَثَجْرَةً، وَلَا كَانَتْ سَبِيَّةِ مِينَاءِ تَجَارِيًّا يَقْصِدُهُ التُّجَارُ الْأَغْرَابُ، فَإِنَّهَا احْتَوَتْ عَلَى نِيْفٍ وَثَلَاثَ مِنْهُ فَنْدَقَ لِخَزْنِ الْحَبَوبِ، وَإِيْوَاءِ الْمَسَافِرِينَ.

وَتَمَ احتلال سبتة يوم الخميس 21 آب (أغسطس)، هانيبال سنة 1415هـ ومن ذلك اليوم، لم تعد مغربِيَّة عربِيَّة إلى يومنا هذا، واحتلال سبتة حادث عظيم خطير<sup>(1)</sup>، تبعه هجمات برتغالية على كل الشواطئ، ومن ثم على الخليج العربي شرقاً.

يقول الضابط البرتغالي فاسكو كاربالو<sup>(2)</sup> Vasco Carbalo :

«وكان شباب البرتغال يتحرقون على القتال، ولكن ضدَّ من؟ أين يجدون العدو؟ إذ إننا من جهة عقدنا الصلح مع قشتالة، ومن جهة أخرى يواجهنا البحر، ولكن بمقتضى تقاليدنا وديننا ومصلحتنا، فإنَّ العدو لا يزال هو المسلم، فإذا كان قد التجأ إلى ماوراء البحار، فيجب أن نذهب للبحث عنه، يجب أن نطارد الوحش في ممكنته».

---

(1) - وما يذكر أن المبشر الميورقي رامون لُل Lull قدْ لُؤتمِرَ فين Vienne بفرنسا في عام 1310م - أي قبل أكثر من قرن من غزو البرتغاليين سبتة - اقتراحًا بتشكيل منظمة تضم فرسان التصاري كافة، وعليها أن تعمل دون انقطاع لاحتلال الأراضي المقدسة (فلسطين)، ويكون أول مهامها احتلال سبتة والقسطنطينية لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضدَّ المسلمين، انظر:

Allison Peers, Roman Lull : A Biography, London  
1929. P. 351

(2) - (دعوة الحق) عن :

Vesco Carbaio, La Domination Portuguaise au Maroc  
Libonne, 1936.

وكان من نتائج إقامة الجيش البرتغالي على أرض إفريقيا، أن تغيرت آراء الأسرة الحاكمة في لشبونة تغييراً جذرياً، لم تكن لتخطر على بال، ففي سبعة زُرِعَت أول بذرة لسياسة الاستعمار البرتغالي، التي لم يكن ليحمل بها أحد حتى ذلك الحين، والتي تفرّغ لها تماماً هنري (الذي لُقب بالملأح)، وهو ابن الملك يوحنا الأول، فاستبدلت به رغبة ملحة لاستكشاف مجاهل إفريقيا التي يكتنفها الغموض بالنسبة للبرتغاليين والأوربيين عموماً، ولم يكن ثمة ما يحول بينه وبين رغبته، أو يثنّيه عن عزمه شيء، خصوصاً وقد سمع في سبعة عن المناجم الغنية بالذهب، والتي يقال إنّها توجد في غانة، وما يجنيه التجار في جنوبية موريتانية من ربح وغنم وغير.

كما سمع في سبعة أيضاً أن ملك الحبشة يدين بال المسيحية، وأن الحبشة تقع في إفريقيا.

وما أن عاد الملك إلى البرتغال حتى عين هنري حاكماً لسبعة، كما أُسند إليه تصريف الشؤون التي تتعلق بإفريقيا، وبعد ذلك بزمن قصير، عيّنه في منصب الأستاذ الأعظم لجماعة المسيح، التي تأسّست سنة 1319م عقب حل جمعية الفرسان

الدُّاوِيَة<sup>(1)</sup> Templiers، وكان كثيرون من أعضائها قد التجأوا إلى البرتغال، حيث بسط عليهم الملك حمايته، وكان الفوز بعضاً منها يعد شرفاً عظيماً، أمّا الغاية التي كانت تستهدفها فهي موصلة محاربة المسلمين<sup>(2)</sup>.

بدأت الكشوف البرتغالية سنة 1418م، حينما أبحرت السُّفن ناشرة أشرعتها، حاملة إلى شعوب إفريقيـة جماعة من الرُّهبان، يبشرـون بالعهد الجديد (الإنجيل)، ويعودون منها بكنوزها من الذهب والعاـج والفلـفل ...

ومضى (هنري الملـاح) بتنفيذ مشروع مغامراته البحـرـية، لأنـه كان يأمل أن يجد في ملك الحبـشـة (القس يوحـنا) حلـيفـاً له في مـقـاتـلةـ المـسـلمـينـ، معـ الـوـقـوفـ عـلـىـ مـدـىـ قـوـةـ المـسـلمـينـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ، خـصـوصـاًـ وـقـدـ وـهـبـ الـبـابـاـ مـارـتنـ الـخـامـسـ<sup>(3)</sup>ـ التـاجـ

---

(1) - الفرسان الهـيـكـلـيـونـ Templiers : جـمـعـيـةـ عـسـكـرـيـةـ رـمـبـانـيـةـ، تـأـسـسـتـ فـيـ الـقـدـسـ لـلـدـفـاعـ عـنـ الـأـرـاضـيـ الـمـقـسـةـ 1118ـ، اـنـتـقلـتـ إـلـىـ الـغـربـ، حـلـلـهاـ مـلـكـ فـرـنـسـ فـيـلـيـپـ الـرـأـبـعـ سـنـةـ 1313ـمـ.

(2) - (في طلب التـوـابـلـ) سـوـنيـاـ يـ.ـ هـاـ، مـكـتبـةـ نـهـضـةـ مـصـرـ وـمـطـبـعـتـهاـ، 1957ـ.

(3) - الـبـابـاـ مـارـتـيـنـ (مارـتنـ) الـخـامـسـ : [1417ـ - 1431ـمـ]ـ، وـهـوـ الـبـابـاـ الـخـامـسـ بـعـدـ الـمـئـيـنـ.

البرتغالي كلَّ المالك الْتِي يستكشفها، «ثُمَّ أَمَنَ البابا في الكرم والسخاء، فَأَحَلَّ مِنَ الأَوْذَارِ وَالخَطَايَا أَرْوَاحَ مِنْ يَلْقَوْنَ حِتْفَهُمْ فِي تِلْكَ الْمَغَامِرَاتِ مِنْ أَعْوَانِهِ وَأَجْنَادِهِ<sup>(1)</sup>»، مَعْطِيًّا الكَشْوَفَ طَابِعَ الْحَرُوبِ الصَّلَبِيَّةِ الصَّرِيعِ.

أَمَّا المَغَانِمُ الْمَادِيَّةُ - كَالْذَّهَبِ وَتِجَارَةِ الرَّقِيقِ - فَقَدْ كَانَتْ كَبِيرَةً جَدًّا، وَكَانَتْ أَوْلَى شَحْنَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرَّقِيقِ سَنَةَ 1444م، قَوَامُهَا 253 رَقِيقًا، وَ«الْقَلْبُ يَتَفَطَّرُ مِنَ الْخَزِيِّ لِلْمَنَاظِرِ الْبَشْعَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ عَلَى مَسْرَحِ الْأَلْمِ وَالْحَسْرَةِ، مِنْ تَمْزِيقِ شَمْلِ الْأَسْرَةِ، وَفَصْلِ أَفْرَادِهَا الْوَاحِدُ عَنِ الْآخَرِ، يُكْتَبُ فِي تَفْجُعٍ بِقَلْمِ الْوَاقِفِ عَلَى أَسْرَارِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمَا يَخْتَلِفُ فِيهَا مِنْ شَعُورِ الْكَمْدِ، وَهُوَ لَمْ يَزُلْ فِي طُورِ طَفُولَةِ الزَّمْنِ، وَلَكِنَّهُ يَسْرِحُ النَّظَرَ فِيمَا وَرَاءِ الْعَذَابِ الْوَقْتِيِّ إِلَى الْخَلَاصِ الْأَبْدِيِّ الَّذِي أَصْبَحَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَاهُمْ (بِأَبْنَاءِ آدَمَ السُّودِ)<sup>(2)</sup>».

وَتَابَعَ الْبَرْتَغَالِيُّونَ كَشْوَفَاتِهِمْ بَعْدَ مَوْتِ هَنْرِيِّ الْمَلَأِ سَنَةَ

1463م.

---

(1) - فِي طَلْبِ التُّوَابِلِ، ص : 106.

(2) - المَرْجَعُ السَّابِقُ، ص : 104، وَمَا يُذَكِّرُ أَنَّ مَلَكَةَ بِرِيْطَانِيَّةَ (إِلِيزَابِيتَ الْأُولَى : 1558 - 1603م) كَانَتْ شَرِيكَةً (لِجُنْ مُوكِنْز) أَعْظَمِ نَخَاسٍ فِي التَّارِيخِ، وَقَدْ رَفَعَتْهُ إِلَى مَرْتَبَةِ النُّبُلَادِ، إِعْجَابًا بِبَطْولِهِ.

وَقَرُّ الْمَلِكِ مَانُويْلِ الْأَوَّلِ [1495 - 1521م]، الْقَضَاءُ عَلَى  
سِيَطَرَةِ الدُّولِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ احْتِلَالِ عَدْنَ وَمَضِيقِ هَرْمَنْ،  
فَسَيِّرُ فَاسِكُو دُوْغَامَا سَنَةَ 1497م، بَعْدَ أَنْ قَالَ فِي وَدَاعِهِ: «هَذِهِ  
الْمَغَامِرَةُ النَّبِيلَةُ، وَالْمَنَافِعُ الَّتِي تُرْجِي مِنْ وَرَائِهَا مَرْضَاتُ اللَّهِ، فَمَا  
هِيَ إِلَّا أَنْ تَفْتَحَ الْهَنْدَ، حَتَّى تَبْلُغَ رِسَالَةَ سَيِّدِنَا وَاللهِنَا يَسُوعَ إِلَى  
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ عَنْهُ شَيْئًا»، عَلَى أَنْ تَبْلِيغَ الرِّسَالَةَ الْمَسِيحِيَّةَ  
- وَإِنْ كَانَ الْهَدْفُ الْأَوَّلُ لِلْمَلِكِ مَانُويْلِ - إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُ  
مِنْ تَوْصِيَّةِ قَوْادِهِ بِخُضُورِ الْبَحْثِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَنْ أَحْسَنِ  
الْوَسَائِلِ وَأَصْلَحُهَا لِلْحَصُولِ عَلَى ثُرَوةِ الشَّرْقِ، وَشَرَحَ الْمَلِكُ  
بِمُنْتَهِيِ الوضُوحِ كِيفَ أَنَّ الْجَمَهُورِيَّاتِ الإِيطَالِيَّةِ إِنَّمَا تَدِينُ  
بِعَظَمَتِهَا وَغَناَهَا لِتِجَارَةِ التَّوَابِلِ.

وَمَا أَنْ فَرَغَ الْمَلِكُ مِنْ خُطَابِهِ، حَتَّى تَقْدَمَ أَحَدُ كِبَارِ رِجَالِ  
الْحَاشِيَّةِ وَهُوَ يَحْمِلُ لَوَاءَ جَمَاعَةِ الْمَسِيحِ، فَسَلَمَ إِلَى فَاسِكُو  
دُوْغَامَا، الَّذِي تَنَاوَلَهُ وَلَفَهُ حَوْلَ ذِرَاعِهِ، ثُمَّ نَطَقَ بِهَذَا الْقَسْمَ: «أَنَا  
فَاسِكُو دُوْغَامَا الْمَكْلُفُ مِنْ مَلِكِي بِاِكْتِشَافِ بِحَارِ الشَّرْقِ، وَبِلَادِ  
الْهَنْدِ الشَّرْقِيَّةِ، أَقْسَمْ بِرَمْزِ هَذَا الصَّلَبِ الَّذِي أَضْعَفَ يَدِي عَلَيْهِ،  
بَأَنْ أَرْفَعَهُ عَالِيًّا مَطْوِيًّا أَوْ مَنْشُورًا فِي سَبِيلِ خَدْمَةِ اللَّهِ وَخَدْمَتِكُمْ  
أَيْنَمَا حَلَّتْ، سَوَاءٌ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، أَوْ فِي بِلَادِ الشَّعُوبِ الْأُخْرَى  
مِنْ أَيِّ جَنْسٍ وَلَوْنٍ، وَأَقْسَمْ أَنْتِي سَأَدَافِعُ عَنْهُ حَتَّى الْمَوْتِ،

لاتمنعني عن ذلك الأخطار، مهما يكن مبلغها، وأينما كانت في البحر أو البر، ومهما أصلى بنار الحروب، وإنني سأصدع بجميع الأوامر الصادرة إلـي، وأطـيع التـعلـيمـاتـ في جـمـيعـ الـظـرـوفـ<sup>(1)</sup>».

وتسلم دوغاما من مليكه رسالة موجهة إلى (القس يوحنا) ملك الحبشة، وقضى وبحارته طوال الليل يصلون لله ويضرعون إليه في كنيسة بناتها الأمير هنري الملـاحـ للبحـارـةـ خـاصـةـ، ورـتـلـ رئيس القـسـ (قدـاسـ الاعـترـافـ العـامـ)، ثم نـطقـ بالـمـغـفـرـةـ وـفقـاـ للـعـهـدـ الـذـيـ قـطـعـهـ الـبـابـاـ عـلـىـ نـفـسـهـ لـلـأـمـيرـ هـنـريـ الـمـلـاحـ، بـأنـ يـمـنـحـهـ كـلـ أـوـلـئـكـ الـذـينـ هـلـكـواـ أـوـ قـتـلـواـ فـيـ الـفـتوـحـ، أـوـ فـيـ الـكـشـفـ عـنـ الـبـلـادـ النـائـيـةـ السـحـيقـةـ، وـأـنـ يـعـدـوـ مـنـ الـوـجـهـ الـرـوـحـيـةـ كـمـاـ لوـ كـانـواـ مـنـ بـيـنـ رـجـالـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبـيـةـ، وـأـنـ يـمـنـحـواـ مـثـلـ مـاـ مـانـحـواـ مـنـ الـغـفـرانـ.

---

(1) - في طلب التوابـلـ، صـ 180ـ، وجـاءـ فـيـ (تحـفـةـ المـجـاهـدـينـ فـيـ أـخـبـارـ الـبـرـتـغـالـيـنـ)، صـ 246ـ : قال عـمانـوـيلـ الـأـولـ: «إـنـ الغـرضـ مـنـ اـكـتـشـافـ الـطـرـيقـ الـبـحـرـيـ إـلـيـ الـهـنـدـ هوـ نـشـرـ الـمـسـيـحـيـةـ، وـالـحـصـولـ عـلـىـ ثـرـوـاتـ الـشـرـقـ»ـ.

ولقد ظهرت قسوة البرتغاليين ووحشيتهم وتعصبهم منذ أول يوم نزلوا فيه أراضي إفريقيا وأسية، لقد أحرق دوغاما مركباً للحجاج يحمل مئات الرجال والنساء والأطفال، دون أن يستجيب إلى توصل النساء إليه، وفي أحد المراكز الهندية أسر حوالي ثمان مئة بحّار هندي، وشنقهم على ظهر سفينة، وقطع أيديهم ورؤوسهم، ثم دفع جثثهم في مركب حمله التيار إلى الشاطئ ليراها ذوهم.

وبعد عودة دوغاما بستة أشهر، أرسل الملك أسطولاً مكوناً من ثلاث عشرة قطعة إلى الهند بقيادة بدره الفارز كابرال Pedro Alvares Cabral، عليها ألف وخمس مائة جندي، عدا البحارة، ومهرة العمال، وسبعة عشر قسيساً، وكان على كابرال أن يبدأ بالدعوة إلى المسيحية، فإن لم تأت الدعوة بالنتيجة المنشودة : «فليحتمل إلى السيف<sup>(1)</sup>».

وفي سنة 1506م أرسل الملك مانويل (ألفونسو أبوكيك: Albuquerque ) إلى الشرق، فدخل مضيق باب المندب، ووصل مصوع وساكن وجدة والسويس، ثم وصل إلى شواطئ عُمان، ومضيق هرمز، ولما استولى أبوكيك على ملقاً، في جنوب شرقي آسية، وعلم الملك مانويل نباء الاستيلاء عليها، أوفد من

---

(1) - في طلب التوابع، ص: 208.

من فوره رسولاً إلى البابا، ليفرضي إليه بالثبا السعيد، بأن «القرن الذهبي قد أصبح الآن ملكاً للبرتغال»، وأقام البابا ليو العاشر<sup>(1)</sup> بمناسبة «هذا الانتصار العظيم» انتصار ملك مسيحي على (الكافر) والوثنيين قداساً خاصاً للشகر، وأمر بتسيير موكب رسمي اشتراك فيه بنفسه<sup>(2)</sup>.

وفي (غوا)<sup>(3)</sup>، قابل أبوبكيرك سفيراً من قبل الملكة الوصية على عرش الحبشة، كان قد وفد على الهند بغية السفر إلى البرتغال على ظهر إحدى السفن البرتغالية العائدية إلى موطنها، وكان هذا المبعوث يحمل خطاباً تقترب فيه الملكة للتزاوج بين أبناء الأسرتين المالكتين، وعرضها رسمياً من الحبشة بإرسال الجنود والمؤن لمساعدة البرتغاليين في كسر شوكة السلطان في القاهرة<sup>(4)</sup>، وتحطيم مدينة مكة.

---

(1) - البابا ليو (ليون) العاشر، البابا السادس عشر بعد المتنين : [1513 - 1521 م].

(2) - في طلب التوابع، ص : 222.

(3) - غوا Goa : مدينة في جنوب غربي الهند، بقيت تابعة للبرتغال حتى سنة 1961 م.

(4) - كان الملوك يحكمون قلب الوطن العربي في هذه الأونة، وكانت القاهرة عاصمتهم، وسلطانهم قاتلواه الغوري.

رافق كلُّ هذا لأبوكيرك، لأنَّه يتمشى مع خطَّته، إذ كانت تلتهب في رأسه فكرة المسير السريع إلى المدينة لاختطاف رفات النبيِّ الكريم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ عرضها على المسلمين بعد ذلك مقابل التخلُّي عن فلسطين<sup>(1)</sup>، وهذا يثبتُ الروح الصليبية الأوروبية الحاقدة، التي توجَّت الكشوف الجغرافية.

وكان من بين الخطط التي اعتمدها أبوكيرك، تحويل نهر النيل عن مجرىه، كي تحرم مصر من خصوبة أرضها<sup>(2)</sup> ففيتم هلاكها، وعبر الأحباش عن استعدادهم ورغبتهم الصارمة في القيام بهذا العمل، ولكن كانت تنقصهم الوسائل لتنفيذِه، فطلب أبوكيرك من الملك مانوييل أن يرسل إلى الحبشة صناعاً من جزد آزور<sup>(3)</sup>، لمهاراتهم في القيام بمثل هذا العمل، إذ كان عليهم أن يفتحوا ثغرة بين سلسلة التلال الصغيرة، التي تجري بجانب النيل داخل الحبشة، فأرسل الملك البرتغالي: «دون روبيجو دي ليمما Rodrigo de Lima سفيراً إلى الحبشة، فوصل عاصمتها أكسوم سنة 1520م، ولكن أبوكيرك توفي قبل ذلك (سنة 1515م)

(1) - في طلب التوابع، ص: 225.

(2) - لأنَّ معظم كهفيات الطمي (الغرين) التي يحملها النيل، قادمة من النيل الأزرق القادر من الحبشة.

(3) - جزد في المحيط الأطلسي (برتغالية).

دون أن يُضع الخطط - التي كان قد اعترضها بشأن مصر -  
موضع التنفيذ.

ولما وصل سبستيان<sup>(1)</sup> إلى عرش الامبراطورية البرتغالية، أراد أن يعلي شأنه بين ملوك أوروبا، فظهر يحمل في يمناه كتابه المقدس، وفي يسراه التاج والصُّولجان، ليتوج نفسه إمبراطوراً على المغرب وإفريقيا، وأنه حلم امتلاك الدنيا بعد الكشوف الجغرافية، واحتلال كل أراضي الإسلام، والقضاء عليه أينما وُجدَ.

فالمملوك الشاب سبستيان كان يملك من الحماس والحداد على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، ماتكاد تنفجر به جوارحه، ويدافع حقد وتعصُّب صليبي من جهة، ويدافع من العقلية الاستعمارية، التي ترى أن يدها مطلقة، في كلّ أرضٍ عربية مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، خطط لغزو واحتلال المغرب<sup>(2)</sup>.

---

(1) - تربع سبستيان على عرش الامبراطورية البرتغالية سنة 1557 م.

(2) - دعوة الحق، مقالة الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخان، ص 104،

فحشد سبستيان اثنى عشر ألفاً من البرتغال.  
وأمده خاله فيليب الثاني ملك إسبانية بعشرين ألفاً من  
عسكر الإسبان.

كما أرسل إليه الظليان ثلاثة آلاف، ومثلها من الألمان،  
وغيرهم عدداً كثيراً.

وبعث إليه صاحب رومه<sup>(1)</sup>، بأربعة آلاف أخرى، وبلغ  
وخمس مئة من الخيول، وأثنى عشر مدفعاً، وجمع سبستيان نحو  
ألف مركب ليحمل هذه الجموع إلى العدوة المغربية.

وفي معركة وادي المخازن (أو معركة الملوك الثلاثة، أو  
معركة القصر الكبير<sup>(2)</sup>، في 4 آب، أغسطس (هانيبال) 1578م،  
صرع سبستيان، وألوف من حوله، وانتصر الأشرف السعديون  
بقيادة عبد الملك المعتصم بالله، بعد معركة دامت أربع ساعات  
وثلث الساعات، ولم يكن النصر فيها مصادفة، بل كان بسبب  
معنويات عالية، ونفوس مؤمنة شعرت بالمسؤولية، وخطة  
مدرسية مقررة محكمة، فما هي إلا (260) دقيقة فقط، ومصير  
المغرب الأقصى يتقرر إلى الأبد عربياً مسلماً.

---

(1) - البابا غريغوريوس الثالث عشر: [1572 - 1585 م.]

(2) - انظر معركة (وادي المخازن) ص: 47، نشر دار الفكر بدمشق.

إنها كشف جغرافية أوربية، وما هي في حقيقتها إلا امتداد للحروب الصليبية، وفي جوهرها حركة تبشيرية، واستمرار لحاكم التفتيش، لذلك اتصفت بضخامة الحشد، وأتسمت بدقة التنظيم والإعداد، لغزو الإسلام في أي بقعة من بقاع الأرض.

وهذه شهادة منصفة من مبشر في إفريقيا ذكرها في كتابه: «الإسلام في إفريقيا الشرقية»، وصاحب الكتاب هو المبشر : «ليندن هاديس»، فقد قرر المؤلف بعد النّظر إلى الفارق الكبير بين أثر العرب المسلمين، وأثر الأوروبيين في إفريقيا الشمالية، أن البرتغاليين قصوا فيها نحو مئتي سنة، لم يتركوا بعدها أثراً من آثار الحضارة النافعة، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذي حلّ على أيديهم بالمعاهد والمعابد الإسلامية، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخرّبون وينهبون، أمّا العرب الذين انتقلوا إلى السواحل، فإنّهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة، وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة.

وليس ماحدث من الدمار حلّ في إفريقيا فحسب، بل حلّ في كلّ بقعة وصلها المبشرون الصليبيون المستعمرون.

ماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكة الأصلي (الهنود  
الحمر)؟

الجواب وبكل بساطة: إبادة كاملة.

وماذا فعلت فرنسة في الجزائر مثلاً؟

الجواب: مليون شهيد وأكثر، مع اتباع سياسة الأرض  
المحروقة على يد (بوجو).

وماذا فعلت إنكلترة في أسترالية؟

الجواب: إبادة واستعمار استيطاني، وفي إفريقيا تميز  
عنصري<sup>(1)</sup>.

وماذا عملت إسبانية والبرتغال في سكان أمريكة  
الجنوبية؟

الجواب: انتهاء حضارة الأنكا والمايا والآزتيك، وإبادة  
كاملة، مع سفن أسبوعية في قوافل منتظمة مستمرة لنقل  
الذهب والفضة إلى إسبانية والبرتغال.

---

(1) - ومن المفارقات الطريفة، أن السفينة التي أعدتها الملكة إليزابيث الأولى  
لشريكها في تجارة الرقيق (جون هوكنز) كانت تسمى (يسوع) !! وكان عدد السفن  
المخصصة للاتجار بالرقيق 192 سفينة، تتسع حمولتها في الرحلة الواحدة  
47.146 رقيناً، وطلبت من رجال الدين مبرراً لهذه التجارة، فأسعفوها بنصوص  
التوراة التي تحل الرق، [حقوق الإنسان، ص: 127].

وكان النَّشِيدُ الَّذِي رَدَّهُ الغَزَاةُ الإِيطَالِيُّونَ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ لِغَزِّوْ لِبِيَا سَنَةَ 1911 مَ:

«يَا أَمَاهَ أَتَمَّ صَلَاتِكَ وَلَا تَبْكِ، بَلْ اضْحَكِي وَتَأْمَلِي، أَلَا تَعْلَمُنَ أَنَّ إِيطَالِيَّةً تَدْعُونِي، وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَى طَرَابُلُسْ فِي رَحْبَةِ مَسْرُورًا لِأَبْذَلِ دَمِيِّ فِي سَبِيلِ سَقْعِ الْأَمَّةِ الْمَعُوْنَةِ، وَلِأَحَارِبِ الدِّيَانَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، سَاقُاتِلُ بِكُلِّ قُوَّتِي لِحُوْقَانِ الْقُرْآنِ، وَإِنْ لَمْ أُرْجِعْ فَلَا تَبْكِ عَلَى وَلَدِكَ، وَإِنْ سَأَلَكَ أُخْرِيَّ عَنْ عَدْمِ حَزْنِكَ عَلَيِّ فَأَجِيبُهُ إِنَّهُ مَاتَ فِي مَحَارِبِ الْإِسْلَامِ».

أَيْنَ هَذَا، مَا نَجَدَهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿Qul\* Ya A-h-l al-Kitaab\* Tَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَBَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا..﴾

[آل عمران 3 / 64]

وَلَمْ تَعْرِفْ الْمَسِيحِيَّةُ التَّسَامِحَ حَتَّى بَيْنَ أَتَبَاعِهَا إِنْ اخْتَلَفَ الْمَذَهَبُ، وَلَنْ نَتَحَدَّثْ مَطْوِلًا عَنِ الْحَرُوبِ الَّتِي نَشَبَتْ فِي أُورُبِّيَّةِ إِبَانِ الإِصْلَاحِ الْدِينِيِّ، وَنَكْتَفِي بِمَثَالٍ وَاحِدٍ فَقَطْ:

### مَلْحَمَةُ سَانْ بَارْتَلْمِي :

مَلْحَمَةُ سَانْ بَارْتَلْمِي مَذْبَحَةُ أَمْرِ بَهَا سَنَةَ 1572 مَ شَارِلُ التَّاسِعُ، وَكَاتِرِينَا دُومِيَّيِّسِيسُ، حِينَما قُتِلَتْ كَاتِرِينَا خَمْسَةُ مِنْ زُعمَاءِ الْبِرُوتُسْتَانَتِ فِي بَارِيَسْ، ظَنِّتْ أَنَّهُمْ يَأْتِمُرُونَ بِهَا وَبِالْمَلْكِ،

ولم يكُد ينتشر الخبر في باريس حتى شاع أنه شُرِّع في قتل **الخوارج**<sup>(١)</sup>، فانقض أشراف الكاثوليكي والحرس الملكي والنبلاء والجمهور على البروتستانت، وقتلوا منهم ألفي نسمة، وقد قُلَّ سكان الولايات الفرنسية بعامل العدو أهل باريس، فسفروا دماء ست إلى ثمانية آلاف نسمة.

ولم تnel حادثة السان بارتلمي أيام وقوعها شيئاً من الانتقاد في أوربة الكاثوليكية، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف، فكاد فيليب الثاني يصبح مجنوناً لشدة فرجه يوم بلغه وقوعها، وانهالت التهاني على ملك فرنسة أكثر من انهيالها عليه لو نال نصراً عظيماً في ساحة الوفى.

وما بدا السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر، فقد أمر بضرب أوسمة خاصة تخليداً لذكرها، رُسِّمت على هذه الأوسمة صورة غريغوار الثالث عشر، وبجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق الخوارج، ثم هذه العبارة:

«**قتل الخوارج**»، كما أمر بإيقاد نيران الفرح، وبضرب المدافع، ويتكلف الرسام فازاري أن يصوّر على جدران الفاتيكان مناظرها<sup>(٢)</sup>.

---

(١) - **الخوارج** هنا يعني البروتستانت الذين خرجوا عن سلطة بابا روما الكاثوليكي.

(٢) - روح المؤرخات، غوستاف لوبيون، ص ١٤

لم نذكر في انتشار الشرائع شيئاً عن موقف اليهودية ونظرتها إلى التسامح، لأننا لانستطيع إيرادها، أو التحدث عنها بشيء تحت هذا العنوان السمع الجميل، والإنساني الأصيل. ونكتفي ببعض النصوص التوراتية كما جاءت في سفر التثنية ويشوع، حيث يقرر ما يجب فعله في مدينة غزها اليهود واحتلواها:

«فَضْرِيَا تَضْرِبُ سَكَانَ تَلَكَ الْمَدِينَة بِحَدَّ السَّيْفِ وَتَحْرِمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدَّ السَّيْفِ، تَجْمَعُ كُلُّ أَمْتَعْتَهَا إِلَى وَسْطِ سَاحِتَهَا وَتَحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَة وَكُلُّ أَمْتَعْتَهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ فَتَكُونُ تَلَأْ إِلَى الأَبْدِ لَا تُبْنَى بَعْدَهُ<sup>(1)</sup>».

«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لَكِ تَحَارِبُهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الْصَّلْحِ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الْصَّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعَبِ الْمُوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تَسْأَلْهُ، بَلْ عَمِلْتَ مَعَهُ حَرْبًا فَحَاصِرَهَا، وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذَكْرُهَا بِحَدَّ السَّيْفِ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي

---

(1) - سفر التثنية 13 / 15 و 17.

المدينة كلُّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكلُّ غنيمة أعدائك التي.  
أعطاك ربُّ إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً  
 جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأماماً مدن هؤلاء  
الشعوب التي يعطيك ربُّ إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة،  
بل تحرّمها تحريماً<sup>(1)</sup>....».

وفي سفر يشوع تتكرر عبارة:

«واضربوها بحد السيف<sup>(2)</sup>»

ونكتفي بنصٍ واحد من السفر المذكور:

«... وكلُّ غنيمة تلك المدن والبهائم نَهَبَها بنو إسرائيل  
لأنفسهم، وأماماً الرجال فَضَرَبُوهُمْ جميعاً بحد السيف حتى  
أبادُوهُم<sup>(3)</sup>....».

---

(1) - سفر التثنية 20 / 10 - 17.

(2) - يشوع : 6 / 21، 28 / 8، 10 / 28، و 30 و 35 و 37 و 38،  
و 11 و 12.

(3) - يشوع : 11 / 14 و 15.

أَمَا العجائبُ الْتِي جَاءَتْ فِي التَّلْمُودِ، فَمِنْهَا:

«إِنَّ إِسْرَائِيلِيًّا يُعْتَبَرُ عِنْدَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنْ  
ضَرَبَ أُمَّيٌّ<sup>(1)</sup> إِسْرَائِيلِيًّا، فَكَانَهُ ضَرَبَ الْعَزَّةَ الْإِلَهِيَّةَ<sup>(2)</sup>.»

«إِنَّ الْكَلْبَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَجَانِبِ، لَأَنَّهُ مَصْرُحٌ لِلْيَهُودِيِّ فِي  
الْأَعْيَادِ أَنْ يَطْعُمَ الْكَلْبَ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَطْعُمَ الْأَجَانِبَ، وَغَيْرِ  
مَصْرُحٍ لَهُ أَيْضًا أَنْ يَعْطِيهِمْ لَهُمْ حَمَاءً، بَلْ يَعْطِيهِ لِلْكَلْبِ لَأَنَّهُ أَفْضَلُ  
مِنْهُمْ<sup>(3)</sup>.»

«قَارِنْ هَذَا اللُّؤْمُ وَالْحَقْدُ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ بِقَوْلِ رَسُولِ  
الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:  
«فِي كُلِّ كَبْدٍ رَطْبَةُ أَجْرٍ».

---

(1) - الأُمَّيُّ: يُدِينُونَ بِهِ مِنْ لَيْسَ يَهُودِيًّا.

(2) - الْكَنْزُ الْمَرْصُودُ فِي قَوَاعِدِ التَّلْمُودِ، ص: 72، تَرْجِمَةُ الدَّكْتُورِ يُوسُف  
نَصْرُ اللَّهِ، دَارُ الْقَلْمَ، ط١، 1987.

(3) - الْمَرْجُعُ السَّابِقُ، ص 74.

أي في كل ماتطعنه جائعاً ذا كبد رطبة ثواب لك من الله  
تعالى دون تمييز بين مسلم وغير مسلم لأنه عمل إنساني<sup>(1)</sup>».

وأخيراً ... كيف بنتكلم عن التسامح عند اليهودية  
و أصحابها «شعب الله المختار»، والناس كلهم دونهم، مسخرون  
لهم ؟ ! ? .

\*\*      \*\*

\*\*

---

(6) - تعليق الاستاذ مصطفى الزرقا في المرجع السابق، ص : 74.

## شهادات منصفة<sup>٦</sup>

\* يقول (فانسان مونتيه)، أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة باريس<sup>(١)</sup> :

«اخترت الإسلام لأنّه دين الفطرة، اخترته ديناً ألقى به وجه ربيّ، كنت في (سان سير) ووقع بين يدي لأول مرّة في حياتي ترجمة لمعاني القرآن، قام بها (أندريه دورير Andre Durier) سنة 1947، فاطلعت على رأي الإسلام بمسألة السيد المسيح، وعرفت أنه بشر أُوحى إليه، ومن أسباب إسلامي تسامح الإسلام تجاه أبناء الأديان الأخرى، وعلى العكس كما يقول سوليناك Soliynac . (داء الجهاد العصبي المسيحي)».

---

(١) - ثم أصبح رئيس مؤسسة الدراسات الإسلامية في مدينة داكار، وهو مؤلف كتاب : (الإرهاب الصهيوني)، وكتاب (الإسلام في إفريقيا السوداء)، وكتاب (مفاتيح الفكر العربي).

\* لوبي ماسينيون<sup>(1)</sup> كان يسمّي الإسلام على الصعيد الاجتماعي: «حكومة المساواة الإلهية» أو «الثيوقراطية المحبة للمساواة».

\* المستشرق الألماني أولرش هيرمان:

«الذى لفت نظري أثناء دراستي لهذه الفترة - فترة العصور الوسطى - هو درجة التسامح التي تتمتع بها المسلمين، وأخص هنا صلاح الدين الأيوبي، فقد كان متسامحاً جداً تجاه المسيحيين، بل كان أكثر تسامحاً من المسيحيين.

إنَّ المسيحية لم تمارس نفس الموقف تجاه الإسلام.

الإسلام دين جذاب جداً، وهذا يعود ربما إلى وضوح الرسالة الإسلامية، ولأسباب لا أعرفها، وإذا نظرنا إلى إفريقيا، حيث تقوم الجماعات الإسلامية والمسيحية كل على حدة طبعاً بمحاولات تستهدف تخلص الشعوب الإفريقية من الوثنية، نجد الغلبة والنصر للإسلام، وهذا كما أسلفت قد يكون سببه وضوح الرسالة الإسلامية، وكذلك جاذبية الرسالة الأخلاقية الإسلامية<sup>(2)</sup>.

---

(1) Massignon - 1883 - 1962] مستشرق فرنسي، اهتم بنشر

مؤلفات الحلاج.

(2) - (العالم) العدد 290، السبت 2 أيلول (سبتمبر) 1989.

\* روبرتسون : «إنَّ أَتَبَاعَ مُحَمَّدَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُمُ الْأَمَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ التَّحْمُسِ فِي الدِّينِ وَالْتَّسَامِحِ فِيهِ، أَيْ أَنَّهَا مَعَ تَمْسِكِهَا بِدِينِهَا لَمْ تَعْرِفْ إِكْرَاهَ غَيْرِهَا عَلَى قَبْوَلِهِ<sup>(1)</sup>».».

\* أمَا غوستاف لوبيون في كتابه «حضارة العرب» فيقول: «وَكَانَ مُحَمَّدُ كَثِيرًا المُسَامِحةُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى خَلَافًا لِمَا يُظَنُّ»، [ص : 155].

«وَسَاعَدَ وَضُوحَ الإِسْلَامِ وَمَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى انتشارِهِ فِي الْعَالَمِ، وَبِتِلْكَ الْمَزاِيَا نَفَسَّرُ سَبِبَ اعْتِنَاقِ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ النَّصَارَانِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ، كَالْمُصْرِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا نَصَارَى أَيَّامَ حُكْمِ قِيَاصِرَةِ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ، فَأَصْبَحُوا مُسْلِمِينَ حِينَ عَرَفُوا أُصُولَ الْإِسْلَامِ، كَمَا نَفَسَّرُ بِهِ السَّبِبِ فِي عَدْمِ تَنَصُّرِ آيَةِ أُمَّةٍ بَعْدَ أَنْ رَضِيتُمْ بِالْإِسْلَامِ دِيَنًا، سَوَاءً أَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ غَالِبَةً أَمْ مُغْلُوْبَةً»، [ص : 159].

«إِنَّ الْقُوَّةَ لَمْ تَكُنْ عَامِلًا فِي انتشارِ الْقُرْآنِ، فَقَدْ تَرَكَ الْعَرَبُ الْمُغْلُوبُونَ أَحْرَارًا فِي أَدِيَانِهِمْ، فَإِذَا حَدَثَ أَنْ اعْتَنَقَ بِعِصْمَانِيَّةِ الْأَقْوَامِ النَّصَارَانِيَّةِ الْإِسْلَامَ، وَاتَّخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ لِغَةً لَهُمْ، فَذَكَرَ لَمَّا

---

(1) - حاضر العالم الإسلامي، ص : 1 / 104.

رَأْوَهُ مِنْ عَدْلِ الْعَرَبِ الْفَالِبِينَ مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلُهُ مِنْ سَادِتِهِمُ  
السَّابِقِينَ، وَلَا كَانَ عَلَيْهِ الإِسْلَامُ مِنْ السُّهُولَةِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفُوهَا  
مِنْ قَبْلٍ .

وَالْتَّارِيخُ أَثْبَتَ أَنَّ الْأَدِيَانَ لَا تُفْرَضُ بِالْقُوَّةِ، فَلَمَّا قَهَرَ  
النَّصَارَى عَرَبَ الْأَنْدَلُسَ، فَضَلَّ هُؤُلَاءِ الْقَتْلُ وَالْطَّرْدُ عَنْ أَخْرَهُمْ  
عَلَى تَرْكِ الإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَنْتَشِرِ الْإِسْلَامُ بِالسَّيْفِ، بَلْ انتَشَرَ بِالدُّعْوَةِ وَحْدَهَا،  
وَبِالدُّعْوَةِ وَحْدَهَا اعْتَنَقَتِ الْإِسْلَامَ الشُّعُوبَ»، [ص : 162].

«إِنْ مَسَامِحةَ مُحَمَّدَ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَانَتْ عَظِيمَةً إِلَى  
الْغَايَةِ، مَا لَمْ يَقُمْ بِمِثْلِهِ مُؤْسِسُ الْأَدِيَانِ الَّتِي ظَهَرَتْ قَبْلَهُ  
كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصَارَانِيَّةِ عَلَى الْخُصُوصِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ  
الْتَّسَامِحُ بَعْضُ عُلَمَاءِ أُورْبَةِ الْمَنْصُوفِينَ الْقَلِيلُونَ الَّذِينَ أَمْعَنُوا  
النَّظَرَ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ، وَالْعَبَارَاتِ الْأَتِيَّةِ الَّتِي أَقْتَطَفَهَا مِنْ كِتَابَيْنِ  
الكَثِيرَيْنِ مِنْهُمْ، تَبَثَّتْ أَنَّ رَأِيَنَا فِي هَذِهِ الْمَسَأَةِ لَيْسَ خَاصَّاً بِنَا،  
قَالَ روَبِيرْتُسُونُ فِي كِتَابِهِ «تَارِيخُ شَارْلَكْنَ» :

«إِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَعَ امْتَشَاقِهِمُ الْحَسَامِ نَشَرُوا لِدِينِهِمْ، تَرَكُوا  
مَنْ لَمْ يَرْغَبُوا فِيهِ أَحْرَارًا فِي التَّمَسُّكِ بِتَعَالِيمِهِمُ الدِّينِيَّةِ<sup>(1)</sup>».

---

(1) - أَورَدَنَا النُّصُنُ قَبْلَ صَفَحَةِ كَمَا وَرَدَ فِي [حَاضِرُ الْعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ] . [104/1]

وقال ميشود في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» :

إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، فقد ألغى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم محمد قتل الرهبان على الخصوص، لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين بلا رحمة وقتما دخلوها.

وقال الرأهب ميشو في كتابه «رحلة دينية في الشرق» :

ومن المؤسف ألا تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو أية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»، [ص : 162]

«وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى وقتما دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لوري (ريمون داجيل) :

حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبوجهها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيّبهم، وبقررت بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس

وميادينها سوى أكdas من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمرُّ المرءُ إلَّا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض مانالوه.

وروى ذلك الكاهنُ الجليم، خبرَ ذبحِ عشرةِ آلاف مسلمٍ في مسجدٍ عمر، فقال:

«لقد أفرطَ قومنا في سفكِ الدِّماء» [ص : 401].  
«ويمكن القول بأنَّ التسامحَ الدينيَّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب»، [ص : 681] :

«لم يفكِّ النصارى بعد أن استردوا غرناطةَ التي كانت معقل الإسلام الأخير في أوربة، في السير على سنة العرب في التسامح الذي رأوه منهم عدّة قرون، بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوة عظيمة على الرغم من العهود»، [ص : 694].

«كان يمكن أن يعمي فتوحُ العرب الأولى أبصارهم، فيقترفوا من المظالم ما يقتربُه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون نشره في العالم، فلو فعلوا ذلك لتألّبت عليهم جميع الأمم التي كانت بعد، غير خاضعة لهم، ولأصحابهم مثلُ مأاصاب الصليبيين يوم دخلوا بلاد سوريا مؤخراً، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك

الخلفاء السَّابقون الَّذين كَانُوا عِنْهُم مِّنَ الْعَبْرِيَّةِ مَا نَدَرَ وَجُودُهُ  
فِي دُعَّاَةِ الدياناتِ الْجَدِيدَةِ، أَنَّ النُّظُمَ وَالآدِيَانَ لَيْسُوا مَا يُفْرَضُ  
قَسْرًا، فَعَامَلُوا أَهْلَ سُورِيَّةَ وَمِصْرَ وَإِسْبَانِيَّةَ، وَكُلُّ قَطْرٍ اسْتَولَوْا  
عَلَيْهِ بِلَطْفٍ عَظِيمٍ تَارِكِينَ لَهُمْ قَوْانِينَهُمْ وَنُظُمَهُمْ وَمَعْقَدَاتِهِمْ، غَيْرُ  
فَارِضِينَ عَلَيْهِمْ سُوَى جُزِيَّةِ زَهِيدَةٍ، فِي الْغَالِبِ، إِذَا مَا قَيَسْتَ بِمَا  
كَانُوا يَدْفَعُونَهُ فِيمَا مَضَى، فِي مُقَابِلِ حَفْظِ الْأَمْنِ بَيْنَهُمْ، فَالْحَقُّ  
أَنَّ الْأَمْمَ لَمْ تَعْرِفْ فَاتِحِينَ رَاحِمِينَ مُتَسَامِحِينَ مِثْلَ الْعَرَبِ،  
وَلَادِينَا سَمْحًا مِثْلَ دِينِهِمْ.

وَمَا جَهَلَهُ الْمُؤْرِخُونَ مِنْ رَحْمَةِ الْعَرَبِ الْفَاتِحِينَ وَمُتَسَامِحِهِمْ،  
كَانَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّرِيعَةِ فِي اتَّساعِ فَتوْحِهِمْ، وَفِي سَهْوَةِ  
اعْتِنَاقِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْمِ لِدِينِهِمْ وَنُظُمِهِمْ وَلِفَتْهِمُ الَّتِي رَسَخَتْ  
وَقَوَّامَتْ جَمِيعَ الْغَارَاتِ، وَبَقَيَّتْ قَائِمَةً حَتَّى بَعْدِ تَوَارِي سُلْطَانِ  
الْعَرَبِ عَنْ مَسْرَحِ الْعَالَمِ»، [ص : 719 وَ 720].

صدق غوستاف لوبيون وأنصف حين قال:

«فَالْحَقُّ أَنَّ الْأَمْمَ لَمْ تَعْرِفْ فَاتِحِينَ رَاحِمِينَ مُتَسَامِحِينَ  
مِثْلَ الْعَرَبِ وَلَا دِينَا سَمْحًا مِثْلَ دِينِهِمْ».

يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ  
وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا  
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(المائدة : 69 / 5).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلَ  
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزَلَ إِلَيْهِمْ خَاطِئِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
ثُمَّاً قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
الْحِسَابِ﴾.

(آل عمران . 3 / 199)

﴿وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ  
يَكْفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ  
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِمْ﴾

(البقرة : 2 / 256)

## عوْنَى عَلَى بَطْءِ

«رُمِّتِي بِبَأْثَهَا وَانْسَلتِ»

العالم المتmodern مهياً للإسلام ديناً ينقذه من ماديتة وفراغه الروحي، فتشويه صورته من قبل الاستشراق - والكنيسة - هدف لصرفهم عن الدين الحق، فتراهم يضعون أمام الإسلام مرآة مقعرة أو محدبة، فملكة الجمال قبالة هذا الوضع تظهر مشوهة يزهد بها.

إثُمَّ يرون خيول الإسلام مسرجة، ترتعد فرائصهم من فرسانها وهو خيالاً، ففي ظل تعاليم الإسلام السمح، يأخذ الإنسان بيد أخيه الإنسان، إن كان جائعاً أطعمه، وإن كان فقيراً أغناه، وإن كان جاهلاً علمه، وإن كان ضالاً هداه ..

أما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنازةٍ مررت  
أمامه، فقيل له: إِنَّهُ غَيْرَ مُسْلِمٍ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
«أَوَ لَيْسَ إِنْسَانًا؟»، [البخاري في الجنائز: 1312]، ويثيرهم  
الإسلام بالتعصب، وتوصف أوربة بالتسامح؟ ويفتري فيكتور  
موغو على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وـ(العهدة العمرية)  
كافية لتقييم موغو حبراً، ولكن صدق المثل العربي القائل:

«رمتنى بدانها وانسلت»

إِنَّهُ «الاستفاط» أولاً وأخيراً.

## المصادر والمراجع

### الأحكام السلطانية:

محمد بن الحسين الفراء، دار الكتب العلمية،  
بيروت، طبعة سنة 1983.

اختصار الأخبار عما كان يشغله سبعة من سنى  
الآثار:

محمد بن القاسم بن عبد الملك الانصاري  
السبتي الرباط 1983.

### أخطار الفزو الفكري على العالم الإسلامي:

د. صابر طعيمة، عالم الكتب، الطبعة الأولى،  
1984.

### الأعلام :

خير الدين الزركلي، دار العلم للعلادين  
بيروت. الطبعة السادسة، 1984.

### الإنسان بين المادية والإسلام:

محمد قطب، طبعة عيسى البابي الحلبي  
وشركاه. الطبعة الثالثة، 1960.

### تاریخ الإسلام:

د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة التّهضي  
المصرية، الطبعة السادسة، 1961.

### تاریخ أوریة فی العصور الوسطی:

هـ . ا . ل . فيشر، دار المعارف بمصر،  
الطبعة الثالثة، (بلا تاريخ).

### تاریخ الشعوب الإسلامية:

كارل بروكلمان، دار العلم للملاتين، بيروت،  
الطبعة الرابعة، 1965.

### تاریخ الطبری (تاریخ الرسل والملوك):

ابن جریر الطبری، دار المعارف بمصر،  
(ذخائر العرب) 1960.

### تاریخ العرب العام:

لويس إميلي سيدیس، طبعة عيسى البابي  
الحلبي، الطبعة الثانية، 1969.

### تاریخ اليعقوبي:

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، دار صادر  
(بلا طبعة أو تاريخ).

### التشير والاستعمار:

د. خالدي، ود. فروخ، منشورات المكتبة  
العصرية، صيدا - بيروت، 1986.

### تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين:

أحمد زين الدين المعيري المليباري، مؤسسة  
الوفاء، بيروت 1985.

### التسامح والتعصب:

محمد الغزالى، دار الكتب الحديثة، مصر،  
الطبعة الثالثة، 1965.

### التفسير الحديث:

محمد عزّة دروزة، طبعة عيسى البابي  
الطليبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى  
. 1963

### حاضر العالم الإسلامي:

لوشروب ستودارد، دار الفكر - بيروت، الطبعة  
الرابعة، 1973.

### المحركة الصهيونية:

د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو  
المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى 1963.

### حضارة العرب:

غوستاف لوبيون، دار إحياء التراث العربي  
الطبعة الثالثة، 1979.

### المراجع:

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (القاضي)،  
الطبعة السُّلْفِيَّةُ ومكتبتها، القاهرة، الطبعة  
الرابعة 1392.

### الدعوة إلى الإسلام:

توماس آرنولد، مكتبة النهضة المصرية،  
الطبعة الثانية، 1957.

### دعوة الحق:

السنة 19، العدد الصادر في آب (أغسطس)،  
هانيبال 1958، الرباط، وزارة الأوقاف.

### دفاع عن الإسلام:

لورا فيشيا فاغليري، دار العلم للملاتين،  
بيروت 1975.

### السيرة النبوية:

ابن هشام، دار الجيل، بيروت 1975.

**شمس العرب تسقط على الغرب:**

زيغفريد هونك، دار الآفاق الجديدة، بيروت،  
الطبعة الثامنة. 1986.

**صحيح الأعشى في صناعة الإنشا:**

أبو العباس القلقشندي، المؤسسة المصرية  
العامة، (تراثنا)، بلاطعة أو تاريخ).

**الصراع الحضاري:**

شريف عكاشه دار الفكر بدمشق، الطبعة  
الأولى، 1986.

**صلبيّة إلى الأبد:**

عبد الفتاح عبد المقصود، الهيئة المصرية  
العامة للكتاب، القاهرة 1975.

**عيون الأثر:**

ابن سيد النّاس، دار الجيل، بيروت، الطبعة  
الثانية 1974.

**الفارة على العالم الإسلامي:**

ا. لوشاتليه، طبعة المطبعة السلفية ومكتبها،  
القاهرة 1350.

**الغزو الثقافي يتد في فراغنا:**

محمد الغزالى، دار الشرق، الطبعة الأولى  
مصر 1959.

**فتح البلدان:**

أبو الحسن البلاذري، المكتبة التجارية  
الكبرى، مصر، 1957.

**في طلب التوابيل:**

سونيا ي. هاو، مشروع 1000 كتاب، رقم 98.  
مكتبة النهضة مصر ومطبعتها 1957.

**قذائف الحق:**

محمد الغزالى ، دار ذات السلاسل  
«الكويت» الطبعة الرابعة، 1980.

**الكامن في التاريخ:**

ابن الأثير الجزري، إدارة الطباعة المنيرية،  
القاهرة، 1348.

**الكنز المرصود في قواعد التلمود:**

ترجمة د. يوسف نصر الله، دار العلم،  
الطبعة الأولى، 1987.

### لسان العرب:

محمد بن مكرم منظور، دار صادر، بيروت.  
«بلا تاريخ أو طبعة».

### ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين:

أبو الحسن علي الحسني النّدوي، مكتبة دار  
العروبة، الطبعة الخامسة، 1964.

### محاضرات في النّصرانية:

محمد أبو زهرة، دار الكتاب العربي، مصر،  
الطبعة الثالثة، 1961.

### المدخل إلى تاريخ الحضارة:

د. جورج حداد، مطبعة الجامعة السورية  
. 1958.

### مسند الإمام أحمد بن حنبل:

المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت  
(بلا تاريخ).

### مصرع غرناطة:

شوقي أبو خليل، دار الفكر بدمشق، الطبعة  
الثانية، 1981.

**معجم البلدان:**

ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت (بلا طبعة أو تاريخ).

**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:**

أحمد بن محمد المقرى التلمساني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1949.

**وادي المخازن:**

شوقي أبو خليل، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى، 1988.

**ودخلت الخيل الأزهر:**

جلال الكشك، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

# المحتوى

## الصفحة

5 مدخل «حوار مع مستشرقة»:

11 - المسلمين في الفترة المكية.

12 - معاهدات النبي ﷺ عليه وسلم بعد الهجرة

15 - وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

16 - العهدة العمرية.

25 - الكنيسة القبطية.

26 - استعمار الجزائر.

30 - الصراع الفارسي - البيزنطي.

31 - افتراضات المستشرقين تتكرر على رأس كل جيل.

41 التسامح:  
45 - الصفع.  
46 - الإحسان.  
55 كيف انتشر الإسلام، وكيف انتشرت الشرائع الأخرى؟  
55 - اتهامات بالتعصب.  
59 - بلاد الشام.  
60 - مصر.  
61 - الأندلس  
62 - السندي.  
63 - مأواه النهر.  
66 - وبعد فتح القسطنطينية.  
69 ماذا قال المسيحيون عن معاملة الفاتحين لهم؟  
71 كيف انتشرت الشرائع الأخرى؟  
71 - البوذية.  
72 - المزدكية.  
72 - الزرادشتية.

72	- الكونفوشيوسية.
73	- المسيحية.
79	محاكم التفتيش.
101	الكشف الجغرافية.
115	ملحمة سان بارتلمي.
121	شهادات منصفة.
129	عود على بدء : «رمتنى بدعاتها وانسلت».

**To: www.al-mostafa.com**